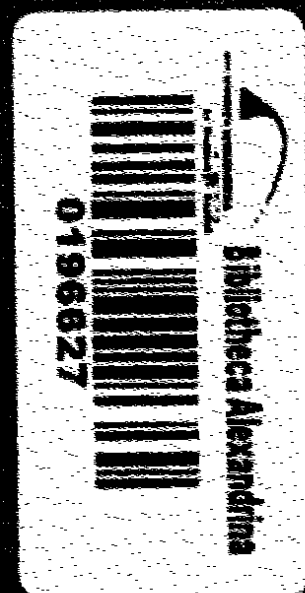


الأسرة في المجتمع المصري القديم

وزارة
الثقافة والإعلام
الإدارة العامة للثقافة



اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

المكتبة الثقافية

٤٤

الأنسنة
في المجتمع المصري القديم
دكتور عبد العزيز صالح

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

أول سبتمبر ١٩٦١

الناشر



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

مقدمة

لا تزال مصر القديمة حيّة في مجتمعاتنا المعاصر ، وفي أوساطه الشعبية والريفية على وجه الخصوص ، بروحها وعاداتها ، وجلدها وإيمانها ، وأخلاقها وطبائعها ، وبساطتها ومرحها ، وأخيلتها وامثالها ، فضلا عن أسماء قراها ومدنها .

وللأسرة المصرية المعاصرة حظ كبير من الصلة بماضيها البعيد ، وتقاليدها القديمة ، من حيث تفضيل الزواج المبكر ، وأوضاع الزوجين في الأسرة ، ومعاني الألفاظ التي تعبّر عن الزوجة ، وحب الإستقرار في المعيشة والسكن ، ...

ومن حيث الرضى بكثرة الأولاد ، والاتكال على الله الذى يخلق كل ولد منهم برزقه ، ...

ومن حيث عادات الوضع ، وطادات النظهر والختان ، ووسائل الوقاية والعلاج ، ومعاني أسماء الأطفال ، وألعاب الأولاد والبنات ، ...

ومن حيث إصرار الأب على سلطانه على أبنائه ، ومجهود

الأم في الأسرة وخارجها ، وأدب أبناء الريف مع كبار السن طامة ، ...

ومن حيث بعض عادات الزواج ، وحب الحياة العائلية في بيت كبير ، على نحو ما كان يشيع بين العائلات المتناسكة حتى عهد قريب ، ...

ومن حيث استمساك الطبقات الوسطى بمظاهر الحشمة ، أكثر من طبقات العامة الكادحة برجالها ونساءها ، وأكثر من الطبقات الثرية التي منحت نساءها حرية في البيت والكهنوت والمجتمع ، تزيد في بعض نواحيها عن الحرية ، التي تمتعت بها النساء المصريات فيما قبل أجيال قليلة ، ...

ثم من حيث الميل إلى التدين ، والسماحة ، وخوف الحساب والعقاب ، والتوكل على الخالق ، والتماس كرامات الأولياء .



بين الزوج والزوجة

أحد شيوخ المصريين فتاه في اواسط القرن
الخامس والعشرين قبل ميلاد المسيح ، وقال له :
« إذا أصبحت كفتاً كَوْنُ أسرتك ، وأحب زوجتك
في حدود العرف ، أو عاملها بما تستحق ... »

ووعظ شيخ آخر غلامه في أواخر القرن السادس عشر
ق. م ، وقال له :

« تخير زوجتك حين الصبا وأرشدتها كيف تصبح إنسانة ،
وعساها ، تنجب لك طفلاً ، فإنها إذا أنجبت لك وأنت شاب
استطعت أن تربيته وتجعله رجلاً . وطوبى للرجل إذا أصبح كثير
الأهل وأصبح يرتجى من أجل أولاده ... » .

افترض الحكيمان المصريان من أركان سعادة الأسرة : كفاية
الزوج ، وتبكيه بالزواج ، ورشاد زوجته ، وحبها لها ، وعدله
معيها ، وإنجابها العيال ، وشعوره بأهميته وسعادته حين يتكاثر
أولاده ويصبح مرجوًّا بينهم ومن أجلهم .

وتفاوتت حظوظ الأسر المصرية في مقومات سعادتها ،
ومقومات شقاءها ، وفي كفايات ازواجها وزوجاتها ، ونجاح
نسلها . ولكن على الرغم من هذا التفاوت الطبيعي الذي شهدته
الأسر في كل مجتمع وزمان ، نعمت الحياة العائلية في مصر
القديمة بنصيب من الاستقرار لم تعهده الشعوب القديمة الأخرى
على الإطلاق .

واختلفت عوامل الاستقرار الأسرى بين طبقة وأخرى ،
وكان أوضحها بين أهل الطبقتين الثرية والوسطى ، نوعاً من
التوازن المقبول ، عدل المجتمع به بين أوضاع الزوجين في
الأسرة . فالزوج بالنسبة إلى زوجته كان يوصف بأنه « هَي »
بمعنى البعل ، و « نَب » أى ولى الأمر ، و « سُن » أى أخ .
وكانت الأنثى بالنسبة إلى زوجها « حَمَة » أى حرمة ، و « مَرَة »
أى حبيبة ، و « سُنَة » أى أخت ، وإذا تحدث الناس عنها
قالوا « نَبِت پر » بمعنى ست البيت .

وابتغى حكيم القرن الخامس والعشرين ق.م ، وكان وزيراً
يدعى بتاح حوتب ، أن يصور لفتاه حقوق الزوج والزوجة ،
فشفع عبارة « أحبيب زوجتك في حدود العرف ، أو عاملها
بما تستحق ... » بقوله :

« أشبع جوفها واستر ظهرها ، وعطر بشرتها بالدهن
العطر ، فالدهن ترياق بدنها ... »

« واسعدھا ما حییت ، فالمرأة حقل نافع لولی أمرھا .
« ولا تھمھا عن سوء ظن ، وامتدحھا تضعف شرھا ،
« فإن نفرت ، راقبھا ، واستعمل قلبھا بعطایاک تستقر فی دارک .
« وسوف یکیدھا أن تعاشرھا ضرة فی دارھا ... » .

وزاد شیخ القرن السادس عشر ق . م ، وكان یدعی آتی ،
فقال لغلّامه :

« لا تقس علی زوجتک فی دارھا إن أدركت صلاحھا .
« ولا تسألھا عن شیء أین موضعه . . . إذا تخیرت له وضعه
المناسب .

« افتح عینک وأنت صامت تدرك فضائلھا ، وإن شئت أن
تسعد فاجعل یدک معها وعاونھا .

« یجهل کثیر من الناس کیف یمنع الإنسان أسباب النزاع
فی داره ، وقد لا یجد أحدهم مبررا للنزاع فیعمل علی خلقه . بینما
یستطیع کل إنسان أن یوفر الاستقرار فی داره إذا تحکّم سريعا
فی (نزعات) نفسه .

«ولكن احذر أن تمشي في طاعة أنثى ، أو تسمع لها بان
تسيطر على رأيك » .

في هذه الحدود ، صور المصريون وضع الزوج في الأسرة ،
فحتموا عليه أن يتكفل بضروريات زوجته وكالياتها ، وارتضوا
له أن يستغنى بفضائل زوجته عن تقائصها ، وشجموه على أن يطربها
ويلاينها . ولكنهم قدروا أنه رب الأسرة أولا وأخيرا ، وأنه
قوام على زوجته يوجهها ويهذبها ، ويؤدبها حين الضرورة ، وعليه
الا يستكين لها فيما يمس كرامته ويتنافى مع سلامة رأيه .

وصوروا وضع الزوجة في أسرتها ، فارتضوها سيدة دارها ،
أثيرة لدى بعلمها ، فاضلة حتى يثبت العكس عليها ، يفرّها الثناء
ويرضيها ، ويسوؤها أن تنافسها امرأة أخرى سلطانها في دارها .
ولكنهم قدروا أنها بحاجة إلى توجيه زوجها ، وإلى إدراك
حقيقة وظيفتها في دارها وبين أولادها .

* * *

ونمّ عن حرص رب الأسرة المصري على استقرار أسرته ،
تصوير شعبي ساذج لطيف في مخطوط لتفسير الأحلام ، ترجع
كتابته إلى القرن العشرين ق . م ، اعتبر أصحابه طلاق الزوجة
وتعدد الزوجات من الشرور المستطيرة ، فقالوا :

« إذ رأى الإنسان في رؤياه ناراً تحرق فراشه ، فذلك شر ، وتاويله طلاق زوجته .
وإذا رأى وجهه في مرآة ، فذلك شر أيضاً ، وتاويله زواجه بزوجة أخرى ،
وإذا رأى أنه يخلع مقعداً من قاربه ، فهو شر كذلك ،
وتأويله حرمانه من زوجته » ١

وأدى حب الاستقرار بين الأزواج المصريين إلى تقليل تعدد الزوجات بينهم إلى حد معقول . وذلك على الرغم من أن النعدد كان مشروعاً لديهم ، وأن فريقاً من الفراعنة والأثرياء وأواسط الناس وطغماهم أيضاً ، أخذوا به وتمادوا فيه ، وأن بعض الزوجات ارتضينه وتساحن فيه ، وأن بيوت السراة في عصور الرخاء والترف لم تخل من وجود الجوارى والسرايا وملك اليمين.

وسجلت المصادر المصرية أخباراً طريفة عن ضرائر راضيات متسامحات . فصورت إحداهن مع أبناء ضرائرها الخمسة يشاركونها متع الحياة في مناظر مقبرة زوجها ، ويقدمون الهدايا إليها ، وهي على اعتاب الآخرة . وروت أن عجوزاً يئست من

عقمها، فاوحت إلى زوجها أن يبنى بجاريته ابتغاء الخلف، ففعل، وأنجبت له الجارية بنين وبنات وقرت عينه بهم. فرضيت العجزز بالأمر الواقع وتبنت أبناء جارتها وخصصت لهم نصيباً من ثروتها المتواضعة، وزوجت بنتاً منهم لأخيها. وسجلت المصادر تسامحاً لطيفاً عن ضربتين أخريين أطلقت إحداهما اسم ضربتها على ابنتها، وأطلقت الثانية اسم ضربتها على بناتها الثلاث اعترافاً بحميلها.

* * *

استنحب المجتمع المصري القديم الزوج الغيور وأبى الخلاعة من الأنثى، وارتضى القتل عقاباً للزانية ذات البعل ومن زنى بها. وبالنسبة للحكماء في تحذير فتيانهم من مخالطة النساء، فقال پتاح حوتب لفتاه:

« احذر مخالطة النساء، فما طاب مكان حلان فيه، ومن سوء الرأي أن يخلص عليهن إنسان.

وكم من امرئ ضل عن رشاده حين استهواه جسم براق ثم تحول عنه إلى هباء، وأصبحت فترات استمتاعه القصار أضغاث أحلام، وأفضت به إلى الهلاك.»

وعقب پتاح حوتب على تحذيراته بعبارات تشبه الأمثال السائرة، قال فيها:

« ينساق الفتى إلى الإثم والسُّهى ينهاء ، ألا تفعل الإثم
فالإثم طار ، وانفذ نفسك من تأنيب الضمير كل نهار » ١

يبد أنه على الرغم من دعوة التحفظ التي دعا الحُكَّاء أبناءهم
إليها ، لم يؤد حرص المصرى على زوجته إلى إلزامها الحجاب
وإبقائها حبيسة دارها . فظل لسيدات الطبقتين الثرية والوسطى
نصيب من الاشتراك فى شئون المعابد وحفلات الدين وخدمة
الأرباب ، ولم ير المصرى بأساً فى أن تخرج زوجته بأطفالها لزيارة
معارفها ووراءها بعض خدمه أو خدمها ، وإذا مرضت لم يكن
يأبى أن يعودها الطبيب فى دارها .

ولم يؤد تحفظ الأسرة المصرية إزاء الأغراب إلى أن توصل
بابها دون الأقارب والأصدقاء . ولم تخل ليالى الأسر الغنية من
دعوات للرجال والنساء ، يجلس فيها كل زوج مع زوجته على أريكة
عريضة ، أو يتخذ الرجال مجلساً يجمعهم ، وتجلس النساء
فى مجلس يجمعهن .

ولم تكن محافل السراة تخلو عادة من رقص وموسيقى
وتطريب وشراب .



نسوة يتاهبن لوليمة موسيقية راقصة ، ترتدى الوصيفات فيها ثيابا
تشبه ثياب المدعوات .



ركن في حفلة نسوية راقصة

وتعاقبت على الأسر الثرية عهود مترفة ، لم تتردد نساؤها
في أن يعقدن مجالس الشراب ويسرفن فيه ، ولو أن شرابهن
لم يكن مسكراً عنيفاً دائماً، وإنما كان منه إلى جانب الحمر المعتقة ،
مشروبات تشبه البيرة الطازجة وسوييا الشعير .



سجلت وناثق المصريين أخباراً طريفة عن أزواج مثاليين ،
عاتب أحدهم روح زوجته المتوفاة حين خيل إليه أنها كانت
سبباً في مرضه ، فذكرها بما أسلف لها من نعم ووفاء ، وقال :
« اتخذتك زوجة حين الشباب ، واستقررت عندك ،
وتقلبت في شتى المناصب وبقيت عندك ،
وما حدث أن تخلّيت عنك أو ألحقت بها بقلبك ، ...
وما أناني إنسان بشأنك وتقبلت منه شيئاً ضدك ، ...
وما أخفيت سرا عنك طيلة حياتك ، ...
وما أسأت إليك قط أو عاملتك معاملة السيد
وما هجرتك ... أو دخلت داراً غير دارك
وما جعلت أحداً يعينني على مسلّكي إزاءك ... »



وحدة متكلفة من زوج وزوجة وابن وأربعة أحفاد يلهون
بأفراخ الطيور

وعبرت متون الدين عن المثالية نفسها للأزواج ، فأكدت
أنهم لم يكونوا يرضون عن زوجاتهم بديلا في عالم الآخرة
ولو تعددت جواريتهم . وسجلت دعوات لهم يرجو الزوج فيها
ألا يعترضه عائق أو معترض يحول دون أن ياتئم شمله بزوجته
وبنيه فضلا عن أمه وأبيه ، سواء استقر معهم في رحاب السماء
أو الأرض أو طاف بهم على سطح السماء ، على حد قول واحد
منهم !



عنخس پان آتون زوجة توت عنخ آمون تعطره بالطيب



جلسة عائلية بين توت عنخ آمون وزوجته يصب لها الشراب وهي
جالسة تعتمد على ساقه

وقابلت اغلب الزوجات وفاء أزواجهن بالحب والطاعة. ولم تأب زوجة أن تعلن تعلقها بزوجها أمام ضيوفها ، أو أن يصورها المصورون وهي تعطر صدره بالطيب ، أو تتخير له أطيب الزهور ، أو تلاعبه بالنرد ، أو تروِّح له وتقف خلفه بالشراب وهو يلعب النرد مع قريب عزيز . ولم تأب أن يمثاها المثلون وهي تحتضن خصر بعلها بساعدها وتلمسه بالساعد الآخر ، كناية عن تعلقها به واعتمادها عليه ، أو تجثو لدى ساقه في إعزاز وإكبار ومحبة .

وجسد أهل الأساطير مثالية الزوجة ومثالية الأم في شخص الربة إيزيس ، وصوروها بمشاعر بشرية صريحة ، يتعاقب فيها الوفاء والعناد ، والسباحة والعنف ، والرحمة والنقمة ، على حد سواء .

وكانت إيزيس أختاً وزوجة للمعبود المصري أوزيريس ، فعاشت معه كما تحكي الأساطير على أسعد ما يعيش به الأزواج ، وشاركته هداية الناس ومسئوليات الحكم ، ولكن الحسد والحقد استعرا ضدها في نفس أخ ثالث لهما يدعى ست ، فكاد لزوجها وقتله ، واغتصب عرشه .

ولم تخضع إيزيس للغاصب القاتل ، وظلت وفية لزوجها
المقتول ، وابتغت أن تجعل له خليفة من نفسها يسير على نهجه ،
فاستعانت بدينها وسحرها حتى ردت عليه روحه ، وحملت منه حملاً
ربانياً ، وأنجبت منه طفلاً ترملت به وشغفت به ، واعتزمت أن تنشئه
النشأة القوية الصالحة ، رغم أنف أعدائه وأعدائها ؛ وأن تعاونه
على استرجاع عرش أبيه والانتقام من قاتله .

وتجلدت إيزيس وجاهدت ، وحاولت أن تشهر بأخيها
القاتل لدى الأرباب والناس ، وكادت له عدة مرات ، ومكنت
لولدها منه ، ودفعته إلى قتاله ، وشاركته في نزاله ، حتى إذا
أوشك على الهلاك استنجد بها ، فرق قلبها من أجله ، واستجابت
لنداء الأخوة والدم على الرغم من تنكره لها ، وأنقذته من القتل ،
وارتضت التبعية منه لولدها ، بعد أن أقرب محقه في عرشه المسلوب .
واعترفت أقاصيص المصريين يبدوات بعض الزوجات وبالغت فيها .
فصورت قصة من القرن السابع والعشرين ق . م ، خيانة زوجة
كاهن كبير هامت بحب فتى من أهل منف ، فتجراً الفتى واعتاد
أن يختل بها خلصة في حديقة قصرها ، وإذا قام عنها اغتسل في
بركة صغيرة بالحديقة نفسها .

وعلم الكاهن بعبث العاشقين ، فاستعان بسحره ، وشكل

تمساحا صغيرا من الشمع ، وتلا عليه أوراد سحره ، وهبأه لكي يتلقى عنه أوامره ، ثم أوحى إليه ان يلقف عشيق زوجته إذا نزل البركة . وعهد الكاهن بتمساحه المسحور إلى أحد أتباعه ، وأوصاه أن يلتقي به في الماء حين ينزله الفتى . وتم ما أراده الكاهن ، فنلقف التمساح غريمه . ومكث به تحت الماء سبعة أيام كاملة . ثم دعا الكاهن فرعون زمانه إلى داره ، واستدعى أمامه التمساح المسحور ، فخرج من الماء يحجر فريسته بضمه . وارتاع الفرعون من هول ما رأى ، ولما أفرخ روعه وعلم بالقصة ، أمر التمساح أن يفتك بالفتى الزانى جزاء جرمه ، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق وذدر مادها في النهر .

وصورت قصة أخرى من القرن الثانى عشر ق . م ، ما تأتته الأبنى اللعوب فى بيت ريفى صغير . وأسهبّت القصة فى وصف الحياة الريفية ، وجعلت أبطالها ثلاثة ، إنپو وهو صاحب دار ومررعة ، وزوجته الفاتنة اللعوب ، وباتا شقيقه الصغير .

ووصفت القصة باتا الصغير بآيات القوة والإخلاص والوفاء ، قصورته مؤيدا بقدرة ربانية ، وزعمت أنه عرف منطق الحيوان ، ونسبت إليه المهارة المطلقة فى شئون الزراعة والرعى .

واعتماد باتا أن يخرج بماشية أخيه مع الفجر إلى الحقل ،
فيحرق أو يحصد ويرعى قطيعه ، ثم يعود في المساء محملاً بخيرات
الحقل وألبان البقر ويقدمها راضياً بين يدي أخيه وزوجته .
وبعد أن يتناول عشاءه ينطلق إلى حظيرة الماشية ، فينام فيها
وحيداً قائماً . فإذا اقترب الفجر أعد إفطار أخيه ، وقدمه
إليه ، ثم أخذ إفطاره معه وساق ماشيته إلى الحقل والمرعى .
وكان يحدث أحياناً ، أن تتسار الماشية فيما بينها بأن السكلا في
مكان بعينه وفي رنضير ، فيفهم باتا قولها ويحقق لها رغبته ، وينتجع
بها ما توده من العشب والمرعى .

ولما حل موسم الزرع قال له أخوه ، هلم أعد الثيران
للحرق ، فالأرض انحسر مأوها وتهايت للزرع . وآتتا يذور
تفرسها مبكرين . فأطاع باتا ، وصحب أخاه إلى الحقل ،
وانشغلا في الحرث ، وفاضت نفساهما بالأمل لقيامهما بالعمل
مبكرين في بداية الموسم . ولكن حدث بعد فترة أن اضطررا
إلى وقف العمل لتنفاذ البذور ، فأرسل إنيو أخاه الأصغر إلى
القرية وأوصاه أن يسرع في إحضار المزيد من البذور .

ولما بلغ باتا الدار ألقى زوجته أخيه تضرعاً شعرها ، فداداها
في مريح وبساطة وقال : « انهضى وناوليني كمية من البذور حتى

أهمل بها إلى الحقل ، فاخى ينتظرني ، ولا تعوقني » . ولكن
الأنثى تناقلت وقالت له اذهب أنت إلى مخزن الغلال واحمل منه
ما تشاء ، ولا تضطرنى إلى ترك ضفائرى .

ودخل باتا المخزن ، وأعد غرارة كبيرة ، واكتال شعيراً
وحنطة . ولما خرج بهما سأله : كم احتملت على كتفك ؟ فأجاب
« ثلاثة مكاييل من الحنطة واثنين من الشعير » . فخاورته قائلة :
« فيك بأس شديد ، وأشهد أنك تزداد قوة وجسارة على
الدوام » . ودرت أمراً فى نفسها ، ثم هبت واقفة وتعلقت به ،
وقالت هيت لك ، ودعنا نمرح ساعة ونضجع ، فذلك خير لك ،
ولسوف أخيط لك ثياباً حسناً . لكن الفتى فوجيء وأجفل ،
وبدا فى هيئة فهد الصعيد الغضوب كما تقول الأسطورة ، واربد
وجهه من سوء ما دعته إليه . فأجفلت المرأة بدورها وخشيت
خشية شديدة .

وقال لها الفتى « اسمعى ، أنت بالنسبة إلى فى منزلة الأم ،
وزوجك فى منزلة الأب ، لأنه أكبر منى ، وقد تعهدنى وربانى .
فلم هذا العار الذى تدعينى إليه ؟ إياك أن تفأخحينى ليه مرة
أخرى ، ولك من ناحيتى ألا أخبر أحداً به أو أدعه يخرج من
فى إلى أحد » !

واحتمل باتا حمولته ، وإنصرف إلى المزرعة ، فلما بلغ أخاه
استأنف العمل كدأبه دون أن ينبس ببنت شفة .

ولما حان المساء انفصل الأخ الأكبر وقصد داره ، وبقي
الأصغر خلف ماشيته حتى أكمل حمولته من خيرات الأرض ،
ثم ساقها أمامه ليبيت بها في حظيرتها .

وخشيت زوجة إنپو ماقبة زلتها ، فاستعانت بعقار جعلها
كالمریضة أو كالمضروبة . فلما بلغ بعلمها داره وجدها ممددة
متهالكة ، فلم تصب الماء على يده كعادتها ، ولم توقد المصباح
قبل مجيئه ، ووجد الدار في ظلام دامس . فاقترب منها وسألها
عن أساء إليها . قالت : « لم يحدثنى سوى أخيك ، أتى يأخذ
البذور ووجدنى وحيدة ، فراودنى عن نفسى وأمسك شعرى ،
فأبيت أن أطيعه ، وقلت له ، أأست فى منزلة أمك ، وأخوك
فى منزلة أهلك ؟ فغضب وآذانى حتى لا أبوح لك بأمره . فإذا
تركته يعيش مت أنا ، وأخشى إذا رجع فى المساء وفاتحته فى
عاره أن ينسب السوء إلى » .

واربد وجه الزوج ، وشحد خنجره ، واختبأ خلف باب
الحظيرة ، ونوى أن يقتل أخاه حين رجوعه .

وعاد باتا حين الفروب ، محملا بخيرات الأرض كعادته ، فلما

دخلت أولى بقراته الحظيرة همست له : « أخوك واقف أمامك
بمخبره ليقهلك ، فاهرب من أمامه » وفهم باتا قولها ، ثم سمع
مثله من البقرة التي تلتها ، وتطلع أسفل الباب فرأى قدمي أخيه ،
فألقي حمولته على الأرض وأطلق العنان لساقيه ، وتبعه أخوه .

وتطلع باتا في محنته إلى ربه رب الشمس رع حراختي ،
وناجاه : « مولاي الكريم ، أنت تفصل بين الآثم والبريء » .
فاستجاب رع لدعائه وفصل بينه وبين أخيه بنهر عظيم ملأته
التماسيح . وضرب الأخ الأكبر كفيه من الغيظ ، فناداه أخوه
من الضفة الأخرى : الزم مكانك حتى يطلع رب الشمس
ونحتكم إليه .

وتجلى الرب رع حراختي حين الصباح ، وتطلع كل من
الأخين إلى الآخر . فقال الأصغر لأخيه : « لم طاردتني لتقتلني
قبل أن تسمع دفاعي ؟ ألسنت أخاك الأصغر وأنت أب لي ؟ إنك
حين أرسلتني لأتيك بالبذور دعيتني امرأتك إلى الحنا ، ولكنها
قصت عليك العكس . ثم قص قصته عليه ، وخنقته العبرات ،
فاستل بوصة حادة وقطع إحليله ورماه في الماء ، ليثبت لأخيه
زهده في الحنا وأهل الحنا ، وكاد يغشى عليه من فرط الألم .

وندم الأخ الأكبر ، ولم يتمالك نفسه فبكى ، ولكنه عجز
عن أن يصل إلى أخيه خوفاً من التماسيح .

ونادى باتا أخاه ، إذا ظننت بي السوء مرة ، فهلا تذكرت
لي خيراً فعلته من أجلك ؟ عد إلى دارك واجمع ماشيتك ، فلن
أملك في أرض تعيش فيها ، وسأذهب إلى وادي الأرز .
وعليك أن تسرع إلى مساعدتي إذا علمت أن سوء أألم بي ،
فلسوف أنزع قلبي وأضعه فوق زهرة أرز . فإن حدث أن قطع
أحد الشجرة وسقط قلبي فابحث عنه ، ولا تمل البحث ولو أنفقت
في البحث سبع سنين . فإذا وجدته ضمه في ماء بارد ، ترد على
الحياة . ولسوف تعلم آية سقوطه حين تقدم إليك كأس جمعة
فتجدها أزيدت واعتكرت ، فإن حدث ذلك فلا تتوان في
الرحيل إلى .

وانطلق الفتى إلى حال سبيله ، ورجع أخوه إلى داره ،
يخشو التراب على شعره ويضع يده على رأسه ، ثم اندفع هائجاً ،
فدبح زوجته ورمى جسدها إلى الكلاب ، وعاش يبكي أخاه .
وأسرفت القصة في الخيال وتصوير المعجزات ، وروت أن
باتا فارق أخاه إلى وادي الأرز في لبنان ، وأن الأرباب عوضوه
عن عفته بانثى رائعة الجمال ، أحبها وأخلص لها ، ولكنها ماشرته

هلى دَخل ، ربما لأنه أصبح عَنِينًا . ثم نقل البحر خصلة من
شعرها إلى فرعون مصر، فسحره عطرها، وأرسل رسله يبحثون
عن صاحبها، فقتلهم باتا إلا واحد أعاد إليه يخبره بمقتل زملائه،
فأرسل الفرعون إليها جماعة أخرى ومنهم امرأة عجوز تحمل
إليها هداياه ، فقبلت الزوجة هداياه وانجذبت إلى سلطانه ،
وصحبت رسله وسافرت إليه وتفربت منه، وأوحت إليه بإهلاك
زوجها وقطع الشجرة التى ائتمنها على قلبه ، فاستجاب فرعون
لكيدها ، وقطع الشجرة فمات باتا . ولكن أخاه تنبه إلى آية
اعتكار كأس الجمعة فظل يبحث عن قلب أخيه ثلاث سنين حتى
وجده ودعا الأرباب فبعثوه فى خلق جديد . وأراد باتا أن يرد
على زوجته عاقبة غدرها ، فتكر لها فى هيئة فحل شديد مرة ،
وهيئة شجرة مثمرة مرة ، وكلما كشفت أمره حرصت زوجها
الفرعون على إهلاكه ، ولكنها ظلت تحيا فى نعيم فاتر وقلق
متصل حتى ظهر الحق ، وعوض الأرباب زوجها القديم بعرش
مصر وملكها العريض ، فقبض عليها وتحاكم معها إلى قضاته ،
فأدانوها ولقيت حتفها جزاء غدرها .

وصورت أساطير الدين للربات الإناث بطشة دونها بطشات

الأرباب الذكور ، وتخيّلت وراء الزوايح والأعاصير العنيفة
ربة تدعى « باستت » صورتها برأس قطة . وتخيّلت للحرب ربة
أخرى أطاقت عليها اسم « سخمت » أى المقتدرة وصورتها
برأس لبؤة .

وروى أهل الأساطير أن ربهم بعد أن أوجد نفسه بنفسه
وأصبح ملكاً على الأرباب والبشر أجمعين تقدمت به السن ،
فتآمر ضده جماعة من أشرار الناس ، وكفروا بنعمته وانتشروا
فى الصحارى ، فآله كفرهم وطغيانهم ، واستشار الأرباب
الكبار فى أمرهم ، فأفتاه شيخهم ألا يواجه العصاة بشخصه
خشية أن يهلكوا وتنفى الدنيا معهم ، وأوصاه أن يرسل
عليهم عينه . فأخذ الإله بمشورته وسلط عليهم عينه ، فتشكّلت
العين فى هيئة الربة حتحور ، وفكّكت بالعصاة وشربت
دماءهم ، واستمرت طعم الدم ولذة الانتقام ، فبدأت تأخذ
أبرياء الناس بجريرة العصاة ، وأوشكت أن تنفى البشر أجمعين ،
لولا أن تدارك أبوها البشر برحمته ، وأوحى إلى أوليائه أن
يتحايلوا على قناته العاتية بشراب مسكر عساه يبعث التراخى فى
جسدها ويصرفها عن غفها ، فرووا الحقول بأنهار من الجعة ،
وخلطوا الجعة بمسحوق أحمر يشبه أكسيد الحديد جلبوه من

أسوان . فلما رأت حتمحور المزيج الأحمر حسبته دما مسفوكا ،
وأوغلت فيه وشربت منه بشره حتى انتشت ، ثم شعرت بخدرٍ
لذيذ ، وتراخت عن التماذى فى القتل والعنف ، ونجى الناس من
عطشها .



الولادة والمواليد

النساء مصر القديمة في مغالبة العقم إلحاحاً كبيراً ،
واستعنّ في سبيل الحمل بمحنة الأطباء ، وحيل
السحرة والرقاة ، وتوسّلن بفيض الأرباب والربات ، وبركات
الموتى والأولياء .

وبقي من شواهد اهتمام الطب المصرى بالإناث ، مخطوط
طبي خصصه أصحابه لأمراض النساء ، ومخطوطان آخران تضمنتا
ثمان وسائل زعم أصحابها أنهم يستطيعون أن يفرقوا بها بين الأنثى
المخصبة والأنثى العقيم .

وشاءت المصادفات أن تتصف هذه الوسائل الباقية بسذاجة
كبيرة . فأوصت إحداها أن تخلط الأنثى قطعة شمام بلبن
والدة ولدت طفلاً ذكراً ، ثم تأكل الحليب ، فإن قاءته
استبشرت بقرب حملها ، وإن استقر في جوفها وشعرت بانتفاخ
بطنها أيقنت عقمها .

والغريب أنه على الرغم من سذاجة هذه الوصفة ، تردد
صداها وصدى أمثالها طوال العصور القديمة ، في مصر وغيرها ،

وأوصى الحكيم الإغريق أبقراط (هيبوكراتيس) بأن تخلط
الأنثى تينا بلبن والددة وضعت مولودا ذكرا ، ثم تأكله . فإن
قائه استبشرت بقرب حماتها ، وإن احتفظت به في جوفها أيقنت
باستحالة حملها !

وأوصت وصفة مصرية أخرى متأخرة ، أن تبول الأنثى
على نبات معين ، فإن أزهر صدق حملها ، وإن ذبل كان حماتها
كاذبا .

وتردد صدى هذه الوصفة هي الأخرى ، طوال العصور
القديمة ، وقال أهل العصور الوسطى الأوربيون بمثلها ، فأوصى
طبيب إنجليزي من القرن التاسع تلميذه بوصفة « لمعرفة الخصب
من العقيم ، رجلا كان أو امرأة » ، وقال له : « ضع خمس قمحات
في حفرة صغيرة ، وسبع فولات في حفرة أخرى . واجعل من
استشارك يبول في الحفرتين ، ولاحظ الجيوب بعد أسبوع ،
فإن نبتت كان صاحبها مخصبا ، وإن ضمرت كان عقيما » !
وتخلف من أدوات الرقاة والسحرة المصريين صحن كبير
نقش صاحبه باطنه وما حول حافته بصور الضفادع ، وكان فيما
يدو يملأه بسائل ما ، ثم يتلو عليه رقاؤه ويسقيه لزاثراته من
النساء .

واستعانت النساء بتأئم خاصة لنجاح الحمل . كان الرقاة يصنعون بعضها على هيئة إناث الحيوان التي تمتاز بكثرة النسل مثل الضفادع ، ويشكلون أخرى على هيئة إناث الحيوان التي تتصف بفضخامة البطن والشدى مثل أفراس النهر .

والتمس نفر من الأزواج والزوجات عون الأولياء وكرام الموتى ، فوضعت أنثى تمثالا صغيرا في قبر أبيها كتبت عليه « أرجو أن تهب ابنتك سح طفلا » . وأسقط شاب رسالة في قبر أبيه توسل إليه فيها أن يساعد امرأته على الحمل ، وبحج الدعاء ، وولدت الزوجة طفلا جميلا ولكنه سقيم ، فأسقط الشاب رسالة أخرى لأبيه قال له فيها « . . . أرجو طفلا ذكرا ثانيا سليما . . . » !

لم يكن شغف الآباء والأمهات المصريين بالأطفال عن رغبة في إشباع غرائز الأبوة والأمومة وحدها ، وإنما كانت وراءه دوافع اجتماعية ودينية كثيرة :

فقد نشأ مجتمعهم القديم نشأة زراعية في جوهره . والكيان الاقتصادي للمجتمعات الزراعية يتأثر بوفرة الأيدي العاملة أو قلتها . وما يصدق من ذلك على اقتصاديات المجتمع الكبير يصدق كذلك على دخل كل أسرة زراعية فيه ، سواء عملت في أرضها

أو استؤجرت في أرض غيرها. فكما تكاثر أفرادها كلما تهيات
الفرص لزيادة دخلها .

وشجعت البيئة المصرية أهلها على طلب العيال دون خشية
العوز المدقع والإملاق . وكانت وسائلها التي أجراها الرحمن
فيها ، هي تعاقب فيضانات النيل ويسر الانتفاع بمياهه ويسر
تصريفها ، وخصوبة الأرض وسخاؤها ، ووفرة النباتات
والمزروعات ورخصها ؟

وطمأن ذلك كله أهل القرى إلى معيشة مأمونة العواقب
لأنفسهم ولأولادهم ، وهوت على فقراءهم نفقات الأسرة
وتكاليف الأولاد .

وحين زار المؤرخ ديودور الصقلي مصر في القرن الميلادي
الأول ، استرعت هذه الأوضاع نظره ، فكتب يقول : «يربى
(طامة) المصريين أولادهم في يسر واقتصاد بالغين ، فيطعمونهم
عصيدة يطبخونها من مواد رخيصة وافرة ، ومن سيقان البردى
بعد شيا على النار ، وجذور نباتات مائية يستسيغون طعمها نيئة
ومطبوخة ومشواة »

واطمان المصريون إلى جود أربابهم كما اطمأنوا إلى جود
بيئتهم ، وسرت بينهم روح الإيمان بالله رحيم ، وصفوه بأنه يدبر

قدرة النسل للنساء ، ويخلق من النطفة بشراً ، ويهب الحياة للطفل في بطن أمه ، ، يتعهد في الرحم ، وإذا ولد أنطقه ودبر أمره . ووصفوه بأنه إله يبنى بأفراخ الحيوان كما يبنى بأجنة البشر ، ويمكن أن يوكل الأمر كله إليه .

وسبحوا هذا الإله الكريم في بعض عهودهم ، فقالوا :
« خلقت العشب لتحبي به البهم ، وخالقت شجر الحياة للبشر ،
« تهب الحياة أسماك الماء والطير في كبد السماء ،
« ترسل الأنفاس للفرخ في الدحية وتحبي الدودة في التربة ،
« قدرت ما يحيي النمل والزواحف والهوام ،
ورزقت الميراث في الجمحور ، ورعيت الطير على الشجر » !

وتعدى إيماء الدين بطلب العيال أمور الدنيا إلى أمور الآخرة ، فاعتقد المصريون أن سعادة المرء في أخراه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يؤديه ولده من طقوس الجنائز حين وفاته ، وما يؤديه من شعائر للقربان بعد دفنه ، وما يتكفل به لإحياء اسمه وإبقاء ذكره .

وتحدث ويرد من متون الأهرام على لسان ولد بار ، يناجي أباه ، فقال : « انهض أبي حتي ترى هذا ، انهض أبي حتي تسمع هذا الذي يفعله ولدك من أجلك » .

وتحدث ورد آخر من متون النوايات على لسان والد نعيم
بسعادة الدارين بفضل ولده ، فقال : « أصبح مقعدى فى حورتى ،
ولم يكن أبى هو الذى وهب لى ، وليست أمى هى التى وهبت لى ،
ولكنه ورثنى هذا الذى أعطانى إياه . » !

وترتب على هذه الصورات كلها أن اعتبر المصريون ثراء
الدنيا قليل الغناء إذا أعوزته نعمة الولد ، ولم يتصوروا سبيلا
لسعادة من حرم من نعمة النسل غير التبني ، يستفيد منه لنفسه
ويفيد به مجتمعه . وعبروا عن ذلك فى رسالة قال فيها صاحبها
لصديقه الثرى العقيم : « إنك وإن تكن موفور الثراء إلا أنك
لم تعمل على أن تهب شيئاً لأحد . وأولى بمن لم يكن له ولد أن
يتخير لنفسه يتيماً يرييه ، فإذا نما عنده صب الماء على يده ، وأصبح
كأنه الولد البكر من صلبه . »

وشارك فراعنة البلاد أهلها فى تمنى كثرة الأولاد لأنفسهم
ولمصر كلها . وانعكس صدى هذه الرغبة فيما سجلوه من نصوص
أكدوا فيها أن أربابهم وعدوهم بوفرة الخلف ومنوهم بعمران
أرضهم . فادعت الملكة حاتشبسوت أن أربابها قالوا لها : « سيء عمر
الصعيد وتعمر الدلتا بالذرايرى ، ويزداد أولادك ، كما زادت
بذور الخير التى غرستها فى نفوس رعياك . »

رجا المصريون الأولاد لدنياهم واخراهم ، وساعدتهم طبيعة أرضهم وأوضاعها الاجتماعية والدينية ، على أن يستزيدوا من العيال دون أن يتوقعوا عنتاً كبيراً وإملاقاً . ولكن على الرغم من ذلك كله ، لم يكن لديهم ما يمنع الأم من أن تتجنب الحمل إذا ضعفت عنه ، أو تخوفت العجز معه عن تربية صغارها إذا تعاقب الواحد منهم بعد الآخر . واهتموا بإيجاد وسائل معينة تؤدي إلى « منع الحمل عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام » على حد قول طبيب مصرى قديم .

ومع ما قدره المصريون من فضل ربهم الذى يصون الجنين فى بطن أمه ، ويحفظ تنفسه وينزل السكينة عليه فلا يئن ولا يبكي ، على حد قولهم ، فطنوا فى الوقت نفسه إلى أن غذاء الأم هو السبب المباشر فى نمو الجنين وتغذيته .

وسمع المؤرخ ديودور الصقلى هذا رأى منهم ، فأعجب به ، وكتب يقول « يعتقد المصريون أن الأب هو المسئول فعلاً عن عملية الإنجاب ، ولكنهم يعتقدون فى الوقت نفسه ، أن الأم هى الوسيلة إلى تزويد جنينها بالغذاء والحمة (أى الحماية والحفظ) . ولا يستبعد أن يكون اهتمام السيدات حتى الآن بوحم الحامل ،

وتلبية ما تشتهي في فترة حماها خشية أن يتأثر تكوين الطفل بحرمانها ، أثرا من آثار التفكير القديم .

وصورت مخطوطات الطب والرقى بعض جوانب العناية بالحوامل ، كما صورت شغل أهلها بتخمين نوع الجنين ذكراً كان أو أنثى . وجعلت من وسائل هذا التخمين أن تبول الحامل على حفتين من الشعير والحنطة ، بشرط أن تضع كل حفنة في خرقة على حدة . فإذا نما الشعير أكثر من نمو الحنطة كان الجنين ذكراً ، وإذا نمت الحنطة أكثر من نبات الشعير كان الجنين أنثى . وربما ظن المصريون أن بول الحامل يتضمن بعض الإفرازات التي تخرج من الجنين وتحيط به ، وتوهموا أن غلبة بعض هذه الإفرازات على بعض تتم عن جنس صاحبها . ولاحظوا بالتجربة أو بوحى المصادفة أن حبوب الشعير تنمو بإفرازات الذكر أكثر مما تنمو بإفرازات الأنثى ، وأن العكس بالعكس صحيح بالنسبة إلى حبوب الحنطة ... ١

ورمزت أساطير المصريين إلى ما توهمته الأمهات الشغوفات بالخلف قبل الحمل وبعده . وأشهر هذه الأساطير أسطورة رواها أتباع الملكة حاتشبسوت عن ظروف مولدها ، وخطوا فيها بين

الواقع وبين تهاريف النساء وأخيلة الكهان وحيل أهل السياسة. وسجلوا صورها وأخبارها في لوحات ملونة على جدران معبدها في غرب الأقصر. ويمكن تفسير هذه الصور والأخبار على النحو التالي :

كانت حاتشبسوت ابنة ملكة من دم فرعوني أصيل تسمى أحس . وورثت أحس عرش مصر عن أبيها أمنحوتب الأول ، واقرنت في صغرها بأمير شاب أو أخ غير شقيق تولى حكم مصر بعد أبيها وتسمى باسم تحوتمس الأول. وثكلت أحس في شبابه عدة أبناء يحتمل أنهم كانوا ولدين وفتاة. وادعت الأسطورة أن هذا الوضع أهم طرفين : الإله الأكبر آمون رب الدولة وحامي عرشها ، والملكة أحس التي وجدت زوجها يتزوج غيرها ، وخشيت أن يرث العرش بعده أحد أبناء ضرائرها ، فتوجهت برجائها إلى ربها آمون ، وتمنت أن يهبها مولوداً يصون العرش لفرعها الملكي الأصيل ، فتلقف الكهان دعوتها وادعوا أنهم سيصلون بينها وبين ربها .

وبدأت الأسطورة بتصوير مشاعر آمون ، فصورته يدبر أمره لإيجاد وريث شرعى يحكم مصر ويعوضها عن سلف من أمرائها . وصورته ينصرف برغبته إلى الملكة أحس بعد أن

تشاور في أمرها مع صفيّه ورسوله المعبود تحوت ، وبعد أن سمع منه الثناء المستفيض عليها .

ولما حزم آمون أمره ، ادعى الكهان أنه أرسل بشيراً بأبائنه إلى أحس . وصوروا هذا البشير على هيئة الرسول تحوت نفسه ، وضمّنوا بشراه أن آمون أسر إلى بقية الأرباب أنه سيهب أحس مولوداً من صلبه يعتلى عرش البلاد . وأضافت الأسطورة أن الإله قضى بأن يجعل مولوده المرتقب أنثى .

واستفسرت الملكة البشير عن آية أو علامة ، فأوحى إليها أن تتزيى بزىّ المعبودة مئوت زوجة آمون المقدسة ، وأسرّها إليها أن ربها آمون سيزورها ، وأنه سيتلبس هيئة زوجها تحوتمس الأول .

وحين اقتربت الساعة واجتمع الزوج والزوجة ، أو الرب والملكة ، هوّمت عليهما هالة قدسية مباركة ، وتسامرا طويلاً ، وباح كل منهما إلى الآخر بمكنون نفسه . وتأدبت الأسطورة فصورت لزوج المقدس يلامس الملكة باليد والرمز ، دون ملامسة الجنس والشهوة ، كما صورت عدداً من الربّات يحضرن اجتماعهما ، دلالة على رمزية الاجتماع وطهارته .

وتحققت المعجزة ، وحملت الملكة ، وأوحى آمون إلى

المعبود خنوم المتكفل بخلق البشر ، ان يصور بدن الجنين من
صالصال ، ففعل . وأسرع الكهان إلى أحسن على هيئة الأرباب ،
وبشروها بصدق الحمل . فلما حان الوضع زارها المعبودان ،
خنوم خالق البشر وحقت المولدة ، وأخذتا بيديها إلى سرير
ضخم نخم ، ووعداها العافية وسلامة العقبى ، فاستسلمت أحسن
لها في استبشار عريض عبر مصور الأسطورة عنه بابتسامة حلوة
مستبشرة سجلها على شفيتها الرقيقتين .

وصممت الأسطورة عن تصوير الوضع ذاته ، وصورت
ما أعقبه من بركات وسرور . وادّعت أن المعبود آمون تخير
للمولودة اسم حاشبست بعد حوار شائق بينه وبين أمها ،
واعتبرها ابنه من صلبه وورثة لعرشه . وادّعت أن أرباب
الحماية والفكاهة أفاضوا بركاتهم عليها وفرحوا بها ، وأن فريقاً
من كرائم الرباب تمهدن بإرضاعها ، وأن طائفة من أرواح
الفراعنة الأقدمين شاركت في التهليل لمولدها ... !

وانتهت الأسطورة إلى خاتمة المطاف في روايتها ، فأكدت
أن الفرعون تحوتمس الأول الأب البشرى للمولودة ، تلقى
إرادة ربه آمون عن رضا ، وأعلنها على الناس ، فنادى بمولوده

حاتشبسوت شريكة له في الحكم وتصريف الأمور، وعهد إليها بالعرش بعده .

ووصفت ظروف الوضع أسطورة أخرى ، صورت ميلاد ثلاثة توائم لامرأة مباركة تسمى « رودچدت » وكاهن من



أحبس في طريقها إلى الوضع بين حقت وخنوم

أولياء المعبود رع يسمى « وسرع » . وادعت الأسطورة أن
رودجيت حين أتاها المخاض لم يكن عندها من يعينها عليه ،
وأن الإله الأكبر رع أراد أن يعينها على الوضع ، فأرسل إليها
أربع ربات على هيئة البشر : قابلة وهي الربة إيزيس ، وثلاث
مساعدات وهن نفتيس وحقت ومسخت ، فضلاً عن تابع عجوز
حمل كرسي الداية وحاجيات التوليد ، وهو المعبود خنوم .
واسترسلت الأسطورة في وصف ساعة الوضع وما ظهر خلالها
من الكرامات ، فذكرت أن الموليدات انقردن بالحامل في غرقها
وأوصدن بابها عليهن وعليها ، وجلست إيزيس أمامها تقوم
بعملية التوليد ، بينما جثت نفتيس خلفها ، لتشد عليها بذراعها
وتكون سنداً لها حين المخاض وعوناً على دفع المولود . وجلست
« حقت » تتعجل الوضع كما روت الأسطورة ، أو تحمى
الطلق كما تقول نسوة اليوم ، واكتفت الرابعة مسخت بالتشجيع
والمهمة شأن العجائز المجربات المباركات . وكما ولدت الوالدة
توأماً بشرته مسخت بما قدّر له من حظ سعيد وقالت « ملك
يتولى الحكم في هذه الأرض كلها » .

وغسلت الربّات المواليد ، وقطعن لكل منهم حبله السرى ،
وأرقدنه فوق مهد متواضع صغير غطينه بغطاء كتاني بسيط .

وأراد تابعهن العجوز خنوم أن يؤدي دوراً يؤجر عليه ،
 فطمأن الوالدة على سلامة أبنائها الثلاثة ، وزودهم بالعافية ،
 كما روت الأسطورة ، ربما بدعائه المبرور أو بمسح أبدانهم الغضة
 بياطن كفه . وخرجت الرّبات إلى الزوج ، فألفينه يرتدى ثوبه
 مقلوباً من فرط جزعه على زوجته وحملها ، فلما بشرته بالبنين ،
 انزاح القلق عنه ووهبن ما كان يدخره في داره من الشعر .
 وبعد أربعة عشر يوماً تطهّرت النفساء ، واستعدت للمأدبة
 متواضعة أرادت أن تولمها للمهنئين وتشكر بها ربها على ما وهبها
 من سلامة وبنين .

* * *

ابتدع الأطباء وأدعياء الطب المصريون وسائل عدّة لتيسير
 الولادات العسرة . وضمّن أحدهم مخطوطاً طيباً كتبه خلال
 القرن السادس عشر ق . م ، إحدى عشرة وسيلة ، تصالح
 « لاستخلاص الوليد من بطن السيدة » على حد قوله .
 ولم يتردد الكهان والرقاة في أن ينافسوا الأطباء والقوابل
 فيما كانوا يندبون إليه من الولادات العسرة ، وكانوا يلبسون
 ملابس خاصة ، ويمسكون عصياً خشبية معينة ، يستعينون بها حين
 يتلون رقاهم على إبعاد من تتوهمه الوالدة من أشباح وشرّاطين ،
 يتجمعون حولها ويؤخرون الوضع أو يفسدونه .

وتفاوتت رعاية الأم المصرية لوليدها بتفاوت الوسط الذي تنتمي إليه . وصورت المناظر والتماثيل القديمة بعض الأوضاع التي كانت الأمهات يتخذنها حين الرضاعة . فالفقيرات منهن كن يجلسن بأبنائهن على الأرض أو يفترشن الحصير ، وأكثر أوضاعهن شيوعاً حين الرضاعة ، هو أن تفرش الأم ساقها من تحتها ، وتضع ولدها الرضيع فوق نحفها . وأقل أوضاعهن شيوعاً هو أن تجلس الأم وتقيم ساقا وتثني الأخرى ، ثم تسند



امرأة ثرية ترضع طفلها في حديقة دارها ، وقد دثرته بدثار سميك يظهر منه طرفه العلوى الذى يكسو الرقبة والرأس ، وضمته إليها بشال عريض .

رضيعها على ساقها المنتصب . اما ذوات النعمة من الأمهات
فصورتهن مناظرهن يتبوان المقاعد بأطفالهن في استرخاء مريح ،
وينعمن مع الإرضاع بأطياب الغذاء ورعاية الإماء والخدم .



تصوير كروكي لسيدة ثرية ترضع طفلها . وقد أحاطت بها جارية
تدلك ساقها ، وأخرى تحمل مرآتها ، وخدام يسارع إلى تلبية
رغباتها ، فضلا عن نسناس مدلل يقبع خلفها .

واتخذت المصريات وسائل عدة لتيسير الرضاعة ، فكانت
إحداهن إذا استشعرت جفاف لبنها استعانت بوسائل التطبيب
التي يعرفها عصرها ، أو تعوذت بالرقى والتأائم . وتضمنت بردية

مصرية وسيلتين لإدراج لبن المرضعة ، أوصت إحداها بأن تحرق المرضعة عظام سمك في الزيت وتسحقها ، ثم تدلك بها سلسلة ظهرها . وأشارت الثانية بأن تستعين الموضع بعفن الحبز ، فتحرق رغيفاً عفناً ، وتخلطه بنبات معين اسمه « خساو » ثم تأكل خليطهما وهي جالسة تقترش ساقيها تحتها .

أما النساء اللاتي اعتقدن في نفع التماثم ، فكن يشترين من موالد الأولياء وأعياد الأرباب تماثم رقيقة من المعدن والحزف ، مصورة على هيئة الندى ، أو هيئة المعبودة إيزيس وهي ترضع طفلها الوحيد ، أو هيئة المعبودة حتحور في شكل البقرة ، أو المعبودة تاورت في شكل فرسة النهر ، ويعلقنها على الصدر أو على الندى .

واستخدمت قصور الفراعنة المراضع منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد على أقل تقدير . وخصصت لكل مولود فيها مرضعة أو أكثر من مرضعة ، وحاضنة أو أكثر من حاضنة ، وكانت تكلف المرضعة أحياناً بدور الحاضنة والمربية .

وحظيت أغلب مراضع الفراعنة بمجزاء وافٍ ومكانة اجتماعية طيبة ، فخصصت لبعضهن ضياع كاملة ، وتمتع بعضهن بحقوق الأمهات على من تولين إرضاعه من الفراعنة ، وجاز لأبنائهن أن يتلقبوا

بلقب الأخوة فى الرضاعة للفرعون الحاكم ، كما جاز لأزواجهن أن يعتبروا أنفسهم فى منزلة الآباء للفراغنة . وكان يفرد لمن أحياناً جناح خاص من أجنحة القصر الفرعونى يسمى جناح الرضاعة أودار المراضع .

وجرى الأثرياء مجرى الفراغنة فى استخدام المراضع ، وتبعهم أهل الطبقة الوسطى . وتوفرت للمراضع فى أسرهم مكانة مقبولة سمت بهن عن مستوى التابعات والجوارى ، وسمحت لبعضهن بالإقامة فى أسرة الرضيع مدى الحياة .

واحتفظت المصادر المصرية من صور وقاء الرضيع بمرضعته ، والريب بمريته ، بما يدل على أن الطفل كان إذا بالغ سن الشباب وفارق أسرته وراسلها ، تـعمـد أن يستفسر من حين إلى حين عن أحوال مرضعته القديمة ، كما يستفسر عن أحوال أهله . فكتب شاب من أهل القرن العشرين ق م . ، رسالة إلى وكيل أعماله ، قال له فيها : « أرجو أن تـكـتب إلى عن كل ما يتعلق بصحة وحياة مرضعتى تـيـا » .

* * *

تفاوتت وسائل التغليب فى الأسر المصرية باختلاف ظروفها واختلاف مستوياتها ، فشاعت بين أهلها عقاير طبية ،

ووصفات شعبية، وتمايم وأحجية، فضلا عن دعوات دينية ورقى
مروية، كانوا يتلون بها على العقار والوصفة الشعبية والقيمة
السحرية، اعتقاداً منهم بأن الدواء الذي يصفه المخلوق ينبغي أن
يلتمس الناس نجاحه من الخالق.

وتعارفت الأمهات وأدعياء الطب على وسائل التمييز بين لبن
الرضاعة الصالح وغير الصالح. فاللبن الصالح تشبه رائحته رائحة
مسحوق الحروب (؟)، وغير الصالح تشبه رائحته رائحة
خباشيم سمك «محيت». وتعارفوا على وسائل أخرى زعموا أنها
تكشف عن مدى قابلية المولود السقيم للعلاج قبل علاجه،
ومنها أن تسحق الأم جزءاً من مشيمته وتخلطه بلبنها، ثم تسقيه
إياه، فإن قاءه تكهنت أنه ميثؤوس من شفائه، وإن استقر في
جوفه اطمأنت إلى إمكان شفائه. ويستطيع الطبيب بدوره أن
يتسمع صوت المولود السقيم، فإن سمعه يردد... في... في...
رجح أنه سيعيش، وإن سمعه يداوم الأنين أو سمعه يقول...
مي... مي، وراه يطاطىء رأسه رجح أنه قصير الأجل!

وابتدع الأطباء عقاير لتنظيم تبول الطفل والنقليل من
صراخه، وتخفيف أوجاع التسنين، وعلاج النزلات المعوية والرمد
والسعال. ولا تزال بعض عقايرهم تستخدمها الريفيات حتى

الآن ، فالخشخاش كان ولا يزال يستخدم لتئويم الأطفال ،
وامراض السعال كانت ولا تزال تعالج يئذور الكراوية وعسل
النحل . ومالجوا النزلات المعوية بعقار يتكون من أطراف
سيقان البردى وحبوب «سپت» ولبن ام وضعت مولوداً ذكرًا !
وأوصت كتب الطب بعقاقير لتنظيم تبول الطفل ، ومنها ان ينقع
الطبيب بردية قديمة مئتوبة في الزيت الساخن، ويضعها على بطن
الطفل حتى يتفاعل عليها نبات البردى وحبب الكتابة مع الزيت .
او ينقع زهور نبات « نبيت » في جعة طازجة ، ويسقى الطفل
منقوعها . أو يعجن بذور « خنت » على هيئة أقراص يتناولها
الطفل مع اللبن أربعة أيام إذا كان رضيعا ، او مع الطعام إذا
فارق سن الرضاعة .

أما أوجاع التسنين ، فابتدعوا من عقايرها عقاراً غريباً ،
وهو لحم الفأر المسلوق . والغريب أن لحم الفأر ظل يستخدم
لدى الإغريق والرومان في عصورهم القديمة ، وعند المشاركة
والمغاربة في العصور الوسطى . ويقال إنه لا يزال يوصف
في بعض جهات ويلز بانجلترا حتى الآن ، لأمراض التسنين
وتقليل جريان اللعاب وعلاج السعال عند الأطفال !

ولم تقنع الأمهات بوقاية أطفالهن من الأمراض العضوية

الظاهرة وحدها ، وحرصن على وقايتهم من الحسد ، وما توهمنه من أذى الشياطين وأشرار الموتى . وتناقلن في سبيل هذه الوقاية تعاويذ ورقى كثيرة ، مازالت بعض الأمهات يعوذن أطفالهن بأمثالها كلما جنّ الليل عليهم وبسط عليهم مخاوفه .

وليس من شك في أن اعتماد التطبيب المصرى على العقاقير الفطرية في بعض أموره ، واعتقاد الأمهات في نفع الرقى والتأسم ، كل أولئك يوحى بأن توفيق المصريين في وقاية أسرهم وعلاج أطفالهم كان توفيقا محدوداً ، لا سيما في أوساط الفقراء والعوام . غير أن شأن المصريين في ذلك ينبغى أن يقارن بما كانت عليه أحوال المجتمعات القديمة المعاصرة لهم ، وليس بما أصبحت عليه أحوال المجتمعات الحديثة . فالتطبيب الفطرى والاعتقاد في نفع الرقى والتأسم كان من شأن الشعوب القديمة كلها . وامتازت الأسر المصرية الواعية بعبادات معينة اعتبرها الإغريق القدماء آيات تحتذى ، وتتصل هذه العادات بنظافة البدن ظاهره وباطنه ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

أولاً — غسل الطفل عقب ولادته ، وهو أمر يمكن أن يرتب عليه أن الأم المصرية كانت تستحب الاستحمام لطفلها في

أعوامه الأولى . وقد لا يكون في ذلك شيء غريب في منطقنا الحالي ، ولكن تتضح أهميته إذا قارناه بما ذكره المؤرخ بلوتارخ من أن أطفال أسبرطة كانوا يكتفون بالاستحمام في أيام معينة من كل عام !

ثانياً — تقصير شعر الطفل ، وذلك أمر هادى هو الآخر ، ولكن هيرودوت رتب عليه نتيجة صحية مقصودة ، وهى رغبة المصريين فى تقوية جلد رأس الطفل وزيادة صلابته بتعريضه عارياً لحرارة الشمس .

ثالثاً — طادة الحثان ، وكانت عامة ، واعتبرها المصريون من عوامل نظافة البدن ، وارتضتها الأديان السماوية للأمر نفسه .

رابعاً — غسل اليدين عند الأكل ، وهى عادة إن لم يأخذ الطفل بها فى صغره ، فلا أقل من أنه كان يعتاد عليها حين يشب عن طوقه .

خامساً — الربط بين النظافة وبين التطهر بالنسبة إلى الأسرة بوجه عام ، كالتطهر من الجنابة ، وتطهر المرأة بعد الحيض وبعد النفاس ، وتطهر الكهان قبل قيامهم بالطقوس الدينية .

سادسا — تفضيل التوسط في الطعام والشراب ، وعبر عنه حكيم قال لولده: « خسىء من شَرِه جوفه » ، وقال: « إن قدحاً من الماء يروى غلة العطشان ، وملء الذم من حشائش الأرض يقيم أود القاب » .

وقال آخر لولده: « إذا طعمت ثلاث كمكات وشربت فدحين من الجعة ، ولم تقنع معدتك فقاومها ، مادام غيرك يكتفى بالمقدار نفسه » .

وقال ثالث لولده: « لا تجبر نفسك على أن تشرب زقاً جعة » يريد بذلك أن يقول لا تغرّك العافية فتحمل معدتك ما لا تطيق .

سابعاً — روى ديودور الصقلي أن المصريين اعتادوا على الحفن والحمية والمقيئات على فترات متقاربة ، وأنهم برروا ذلك بأن أغلب الغذاء الذي يتناوله الإنسان يزيد عن حاجته ويولد الأسقام ، وأن الاستغناء عن بعضه يستأصل المرض ويكفل العافية . ولا يبعد أن الكبار كانوا يشجعون أبناءهم على هذه العادة منذ الصغر حتى يألّفوها حين الكبر .

وليس من المستبعد أن هذه العادات التي اخذت بها الأسر المصرية الواعية في المظافة والطعام والشراب ، كان لها بعض الأثر

فى تخفيف اضرار الخرافات والتألم والرقى التى اعتادها عامة الناس وأدعاء الطب والسحر ، وصبغوا بها كثيرا من وسائل الوقاية والعلاج والتطبيب طوال عصورهم القديمة .

تسمية الطفل

تشابهت أسماء المواليد فى مصر القديمة مع أسمائهم فى مصر الحديثة فى عدة نواح ، ومنها :

تسمية الطفل بيوم مولده ، مثل « طفل اليوم التاسع » ، وذلك على نحو ما نقول الآن خميس ، وجمعة ...

وتسميته باسم مناسبة دينية أو وطنية، مثل تسمية « حور محب » أى الرب حور فى عيد ، إذا صادفت ولادة الطفل يوم عيد هذا المعبود ، وذلك نحو تسمية أطفالنا رمضان وعيد وبشأى . وتسمية الطفل « مولاي على رأس جيشه » إذا صادفت الولادة يوم عودة الفرعون على رأس جيشه ، وذلك على نحو ما أطلق بعض المعاصرين على بناتهم اسم « وحدة » لولادتهن يوم إعلان الوحدة ...

وتسميته بما يعبر عن وضعه بين إخوته ويميزه عنهم ، كأن يكون ذكراً وحيداً بين إناث ، أو أنثى وحيدة بين ذكور ،

أو يكون أول من أحجبه أبواه بعد عقم طويل ، مثل « نيسن »
أي سيدهم ، و « إيتسن » أي أميرهم ...

وتسميته باسم أحد والديه أو أحد جديه ، أو باسم الفرعون
الحاكم أو ولي عهده إذا ولد معه . أو باسم أحد الفراعنة
القدماء المشهورين ...

وتسميته باسم بعزبه مثل « پامای » أي السبع ، و « وسر حات »
أي الجسور ، و « سنجم إيب » أي مسعد القلب ...

وتسميته باسم يبعد الحسد وعين الشر عنه ، مثل « چار »
أي عقرب ، و « نرخیسو » أي ما أعرفوش ، و « بورخف »
أي العبيط ...

وتسميته بصفة جسمية تميزه ، مثل الضرير والأسود
والأحمر ...

ونسبته إلى بلدته أو مكان ولادته مثل المني والطبي ، كما
نقول الآن طنطاوى وشبراوى ...

واشتقاق اسمه من ظروف ولادته ، أو من عبارة نطقت أمه بها
حين ولادته ، مثل « إيمحوتب » أي جاء في سلام ، و « إيمسخ »
أي جاء بسرعة ، وذلك مثل تسمية بعض الأمهات الأعرابيات
لأبنائهن باسم متعب واسم عمران تكنية عن عسر الولادة ،

أو تسمية زوجة النبي يعقوب إبنها بن عوفى تكتنية عن العناء الذي
لا قته في ولادته ، كما ذكرت التوراة .

وعلى نحو ما نقول الآن إن خير الأسماء ما عبّد وحمّد ،
مدفوعين بدافع التدين ، شاعت بين أسماء المواليد المصريين أسماء
عبرت عن روح التدين في أسرهم أصدق تعبير . وكان من هذه
الأسماء ما يربط بين المولود ومجبود قومه برباط التبعية مثل حم رع
أى عبد رع ، وباكن أمون . أى عبد أمون ؛ أو يربط بينهما
برباط القرب والمحبة ، مثل سا أمون أى ابن أمون ، وسن نثر أى
أخو الرب . أو رباط الشكر ، مثل نفر إيرت يتاح أى طيب
ما فعله يتاح . أو رباط التعبد والإيمان مثل ، نفر حرن يتاح أى
عز وجه الإله يتاح ، وأمون وع أى أمون أحد . أو رباط
التوكل مثل عنخى مع يتاح أى حياتى فى يد يتاح ... وهلم جرا .

ولم يكن المصريون ينادون أطفالهم بأسمائهم كاملة ، وإنما
كانوا يختصرونها ويحورونها ، ويرخونها وينغمونها ، وينادونهم
بأسماء إبنى ومى وششى ومحب وسوسو .. إلخ . وكانوا يسمون
الولد أحياناً باسمين أو ثلاثة ، اسم عادى واسم تدليل ، أو اسم
عادى وكنية ، أو اسم يختاره له أبوه واسم تختاره له أمه .

الأطفال في الأسرة

الطرائف المجتمع المصرى إلى رعاية الأم لطفلها في سنه المبكرة . فكانت تحتضنه طيلة أعوامه الثلاثة الأولى ، ترقده بجانبها ، وتحمله على خصرتها أو كتفها أو حول كتفها ، وإذا خرجت به حملته بالأوضاع نفسها أو حملته عنها خادمة على خصرها وشده إليها بشال عريض . وإذا استطاع الطفل المشى أمسكته أمه بيدها حين الخروج ، أو تركته إلى خادمة تتبعها به ، أو أجلسته معها في محفة الخروج . واحتفظت المناظر والتماثيل المصرية الصغيرة بأوضاع طريفة تمثل الأم في دارها تمشط شعور بناتها ، وتضم إليها أولادها .

وشارك الأب المصرى امراته في الحذب على صغاره ، ولم يكن أباً غليظاً يتباعد عنه أطفاله . فصورته المناظر يضع يده في يد ابنه ، أو يضع يده على رأس ابنه . وصورته البنت تستند يديها على كتف أبيها ، أو تمسك كتفيه وهو يلعب النرد مع أمها ، وصورته الوالد يتعلم من لولده الصغير حتى يصعد على نخذه ويقف عليه مستنداً على ذراعه ، وصورته يجلس ولده على حجره ويحيطه



رجل وابنه وأخوه في وحدة متماسكة

بذراعيه . وصورت أخناتون يجلس بناته على حجره ويرفعهن
بين يديه ليقبلهن . وصورت الإخوة الصغار يمسك بعضهم بأيدي
بعض ، ويدلل بعضهم بعضا ، ويضم بعضهم بعضا ، ويركب بعضهم



جلسة عائلية سمحة بين أخنائون وزوجته وبناته المدلات

فوق ظهور بعض . وكشفت المناظر بذلك عن روح سمحة
طلقة أخذت الأسرة المصرية بها في معاملة صغارها ، ولم تر في
تصويرها داخل المقابر ما يجافي قداسة المقابر ووقارها .

* * *

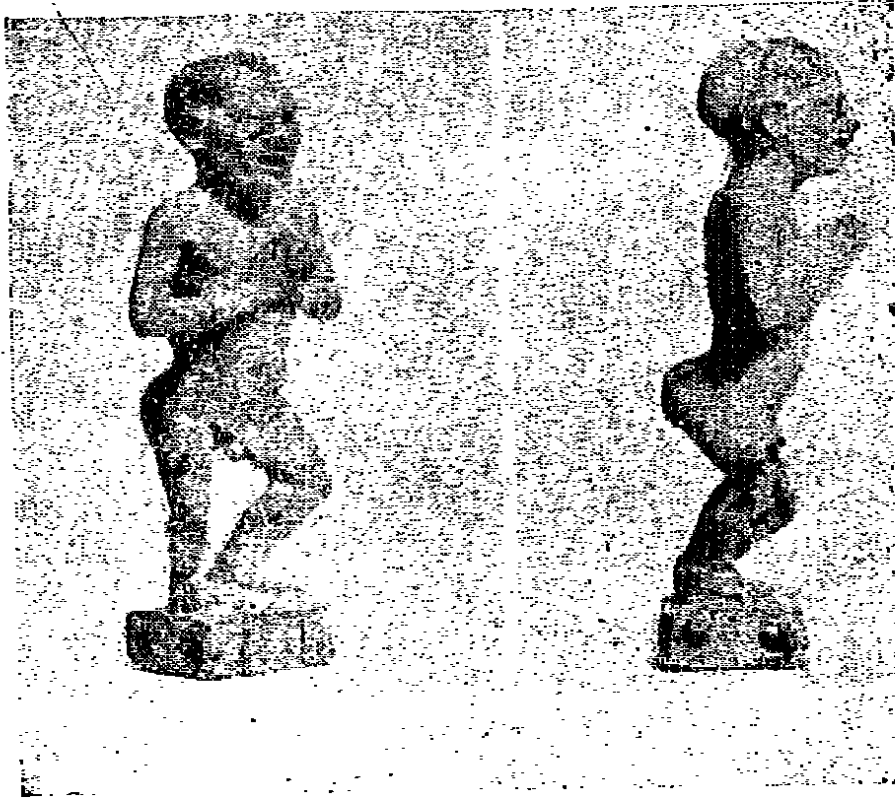
عرف المصريون لكل سن ما يناسبها من لعب وألعاب ،
وبقي من لعب أولادهم لعب وعرائس ودمى كثيرة ، صنعها أصحابها
من الخشب والعاج والطين والحجر والجلد .



ابنة أختنا تون تداعب أختها في براءة وحنان

وأمتع اللعب المصرية هي اللعب المتحركة ، ووجدت واحدة منها في قبر صبية تدعى حابي ، صنعت من العاج ، ومثلت فرقة اقزام راقصة يعتلى أفرادها خشبة مسرح صغير ، ويرأسهم « ما يسترو » يضبط الإيقاع لهم بالتصفيق ، ويتخذ كل منهم وضعاً ينم عليه ، فيفتح أحدهم فاه كأنه يغنى ، ويخرج الثاني لسانه ، وينثنى الثالث بجسمه .

وكان يتعلم بقواعد الاقزام خيوط متينة توجه الصبية بها أفراد الفرقة حيث شاءت .



قزم من أربعة أقزام يؤلفون فرقة راقصة

ويحتفظ متحف القاهرة ومتحف ليدن بلعبتين صغيرتين ،
تمثل كل منهما رجلاً يطحن الحب بمرحاة دقيقة فوق سطح
منحدر صغير . ويتدلى خيطان من جذع الرجل ، يشدهما
الطفل فيوقفه ، ويرخيها فيجعله يميل .

وإلى جانب اللعب الإنسانية المتحركة ، صنع هواة اللعب
لعباً حيوانية متحركة ، وأطرافها يمثل تمساحاً خشبياً ذا فك

متحرك يحركه الطفل بخيط يتصل به ، وضفدعة طاحية صغيرة ذات فك متحرك ، ولبؤة خشبية ذات فك متحرك تبدو كأنها تسير في خطو متناقل وثيد ، وقطة خشبية ذات فك متحرك وعينين مطعنتين . ولعبة متحركة تجمع بين إنسان وحيوان وتمثل رجلاً مذعوراً يلاحقه كلب مسعور يستطيع الطفل أن يحركه ويوجهه خلف فريسته .

وشاعت العرائس والدمى بين لعب الأطفال ، ومثلت أشكالاً إنسانية ، وأخرى حيوانية ، وثالثة جمعت بين الإنسان والحيوان . وصنمها أصحابها بما يناسب إمكانيات الأسر المختلفة ، فصنعوا العرائس من الخشب والطين والفخار والقيشاني والعاج والحجر .

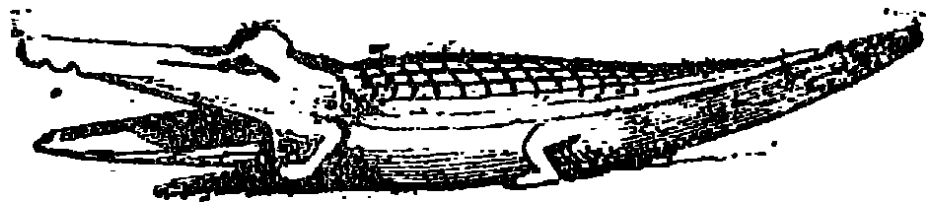
وصوروا على بعض هذه العرائس صور القلائد ، ورسوماً هندسية وحيوانية ، وزينوها بخصل من الشعر الطبيعي وشعور مستعارة من الخيوط المجدولة والصوف وحبات الطين المسلوكة في خيوط على هيئة الخرز . وميزوها بأذرع تتصل بأجسامها بوصلات خشبية صغيرة ، يستطيع الطفل أن يحركها ويتخيل الحياة فيها .

ومن أطرف الدمى دمية تمثل قردة أجلست بنتها أمامها

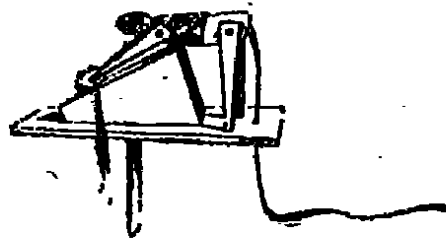
لتمشط لها شعرها على نحو ما تفعل الأم البشرية مع بناتها .

ودمي أخرى تجمع بين الإنسان والحيوان ، ومنها قرد يجر
عربة ، وطفل يلعب جروا ، وفارس أو سائس يمتطي مهرة
ذات عرف قصير ويشد لجامها ، وقزم برأس قط ، وأسير
برأس بطة ، ونمس يهاجم ثعباناً ، ووحش يفتك بزنجي ،
وقيل يعلوه راكبه .

* * *



تمساح خشبي يفهم متحرك



لعبة متحركة تمثل رجلا يطحن الحن



نموذجان لعرائس الأطفال

ويشرب الطفل عن طوقه ، وينصرف عن العرائس والدعى
والألعاب الفردية إلى الألعاب الجماعية ومزاملة الرفاق من
سنه . وفيما بين حدائق القصور وسطوح الدور ، والأزقة
والأطلال والحقول ، مارس الأطفال المصريون صنوفا
عسدة من الألعاب المرحية لا تفترق عن ألعاب أطفال اليوم
في شيء كثير .

ومن الألعاب التي صورتها المناظر المصرية القديمة لعبة
لا زال أطفال الريف يلعبونها ويسمونها خزا لاوزة ، ويجلس
لها صبيان متقابلان يضع كل منهما قدما فوق الأخرى ، ويتتابع
أطفال آخرون في النفز فوقهما ، ثم يزيد كل منهما قبضة يده
فوق قدميه مرة ، وكفه مرة ، وكفيه مرة أخرى ...

ولعبة أخرى كان الصبيان يتبارون فيها على اقتلاع أدوات
مدية يرشقونها أولا في كتلة خشبية ، ثم يحاولون أن يقدفوها

بعيداً بصرة عصا سريعة . وكانوا يلعبونها بثلاث طرق ، يشترك فيها اثنان أو ثلاثة ، ويمسك اللاعب فيها بعصا أو عصوين ، ويضربون فيها أداة مديية واحدة أو أداتين ..

ولعبة ثالثة يعتمد الصبيان فيها على أعقاب أقدامهم ويدورون عليها في شبه حلقة ، بحيث يقف اثنان منهم في محورها ، ويمسك كل منهما يدي زميلين له يميلان إلى جانبيه .

ورابعة ، ينقسم اللاعبون فيها فريقين ، ويحاول كل منهما أن يجذب الفريق الآخر ناحيته ، مما يشبه لعبة شد الحبل الحالية .

وخامسة يلعبون فيها بعضى معقوفة وطوق ، فيقف اثنان على جانبي طوق ويسلك كل منهما عصاه في الطوق بحيث تتشابك مع عصا زميله ، ثم يحاول كل منهما أن يخلص عصاه ويجذب الطوق بها قبل زميله .

وسادسة ، تشبه لعبة « عساكر وحرامية » يتظاهر الصبيان فيها بجدية مفتعلة لطيفة ...

وسابعة تشبه لعبة جوز ولا فرد ، يلعبونها بزهر أو حصي ، ويؤدونها بثلاث طرق ، يشترك فيها اثنان أو ثلاثة أو أربعة .
وثامنة يقف فيها ثلاثة أولاد جنباً إلى جنب ، يصعد رابعهم

ليتنقل فوق أكتافهم معتمداً على يديه وقدميه ، بما يشبه بعض
تمارين الجباز الحالية .



أربعة أنواع من ألعاب الصبية في الدولة القديمة

وتطورت عن هذه الألعاب الساذجة ألعاب أخرى ناضجة ،
سجلتها مناظر مصرية يرجع عهدها إلى القرن العشرين قبل
الميلاد ، وتضمنت تمريناً لللف الجذع الأعلى في شدة ، وتمريناً
آخر يصور حركة سريعة يعتمد غلام فيها على ناصية رأسه ويحفظ
توازنه بها في استقامة كاملة دون ارتكاز على يديه أو كفيه ،
وأوضاعاً مختلفة أخرى يشترك الصبية فيها فيما يشبه العرض
الرياضي المرح ويكتسبون بها نصيباً من الرشاقة ومرونة الحركة .
ومارس الفتيان عدا هذه الألعاب ألعاباً أخرى يتطلب
أداؤها نصيباً من الجهد والتمرين والمهارة ، مثل المصارعة وحمل
الأثقال والقفز والتخطيب والعدو والسباحة والتجديف ، وكان

يؤديها الشببية عادة هواة ومحترفين ، ويحاول الصغار أن يقلدوهم في بعضها كلما استطاعوا .

وساعد أبناء الطبقتين الثرية والوسطى على ممارسة ألعابهم الجماعية ثلاثة عوامل ، وهي :

رضا أهلهم عن ممارستهم لها مع زملائهم ، وقد بلغ بهم هذا الرضا إلى حد سباحهم بتصويرهم يؤدونها على جدران مقابرهم .
ووجود قواعد للألعاب الرئيسية تجرى بمقتضاها ، لاسيما لعبة المصارعة ،...

وأن دورهم كانت دورا طائفة بمعناها الواسع ، يسكنها رب الأسرة وأولاده المتزوجون وأحفاده ، وتتوفر فيها أحيانا حدائق متسعة وأقنية رحبة .

وذلك على العكس بطبيعة الحال من بيوت العامة التي صورتها المناظر الباقية وطبئة ضيقة متلاصقة ، والتي لم يكن لأطفالها أن يمارسوا ألعابهم الجماعية في غير الأزقة وقرب المزارع وبين الأطلال القديمة ، كلما تحرروا من العمل والسعي وراء كسب الرزق .

وضع الأنثى

أسماء الفتيات المصريات أن أغلب أسرهن كانت ^{قصورهن} تتقبل مولد الأنثى بقبول حسن ، وترضى بها رضاء يقرب من رضاها بالذكر . وتقول يقرب من رضاها بالذكر بغير أن تنفى أن وضع الولد فى المجتمعات القديمة ظلّ أزكى من وضع الفتاة ، وأن إشار المولود الذكر نشأ عن اعتبارات عدة ، بعضها منطقي مقبول ، وبعضها مصطنع مفتعل . ومن هذه الاعتبارات أن ربّ البنين كان أظهر بين قومه ، وأكرم على أهل حيّه من رب البنات ؛ وأن أهل العشائر كانوا يتطلعون إلى الفتى ليكون درءاً لعشيرته دون الفتاة ؛ وأن رب الأسرة كان أحوج وأميل إلى الولد حتى يشاركه خبرته ، أو يخلفه فى أهله وثروته إن كان من أصحاب الثراء ؛ وأنه كان بوسع الفتى أن يظلّ أكثر حفاظاً على روابط الأسرة من الفتاة ، وأكثر قدرة منها على أن يحمل اسم أسرته لمن يولد له من الأبناء ؛ وأن جريرة الفتى إذا زلّ كانت أقرب إلى النسيان والغفران فى رأى الأسرة ورأى المجتمع من جريرة الفتاة .

وتفاوت إشار الذكر بن كل مجتمع قديم وآخر ، وبين كل عصر قديم وآخر ، ولكنه ظل أقرب إلى طابع الاعتدال في المجتمع المصرى القديم ، على الرغم من أن أصحابه المصريين زادوا في تقدير الذكر اعتباراً آخر ، فربطوا بين نعيم رب الأسرة في أخراه وما يكفله له ولده من شعائر الجنائز وطقوس الدين ، فضلاً عن إحياء اسمه وتخليد ذكره !

فى الطفولة والصبا :

ويتسم بعض أسماء الإناث المصريات بطابع العذوبة والطرافة ، ويسهل التعبير عن أسمائهن الشائعة باللهجة العامية أكثر من الفصحى ، مثل : « نفرة » أى جميلة ، « برة » أى طعنة ، « حررة » أى زهرة ، « جحسة » أى غزالة ، « نفرتارى » أى حلوتهم ، « نفرتيتى » أى الحلوة جارية ، « دوات نفرة » أى صباحية مباركة !

ومن أسمائهن ما يكشف عن استبشار الأبوين بمولدهن ، مثل : « وبت نفر » أى بشيرة السعد أو قدم السعد ، و « نختى » أى رجائى أو اللى رجيتها ، و « تاحر نحس » أى الدنيا تدعو لها ، و « سنت إيتس » أى أخت أبيها ، و « حنوت سن » أى ستم .

ومن أسماء التدليل لمن :

« تاميت » أى قطة ، و « إوبة » أى فتقوتة .

وتخشى الأم الحسد على طفلتها ، فتسميها :

« زرختوسى » أى ما حدثش يعرفها ، « جت موتس »
أى اللى لقيتها أمها .

وترضى الأم بطفلها رضا القناعة وتبر عن ذلك بتسميتها :

« نفر حوتب حتحور » أى فضل الربة حتحور نعمة .

غير أن الأمهات لم يكن على سواء فى الرضا بالمواليد الإناث ،
وإنما منهن من كانت تتبرم بكثرتن لديها ، وتصبر على أن تسمى
بعضهن بأسماء غريبة مثل :

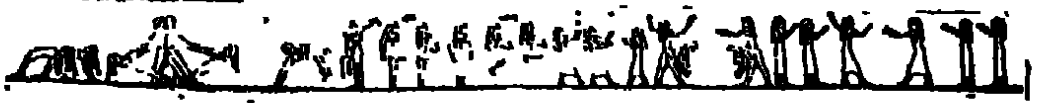
« إوسر إاخ » أى : إيه دى ؟ أو حاملة كده ليه ؟

وكانت أسماء البنات تختصر وتحوّر ، وترخم وتنغم مثل
أسماء البنين ، وينادين أهلن بمثل أسماء تيس ، ونبت ،
وإينتى ... ، وهلم جرا .

والواقع أن أسماء المواليد الإناث ليست هى المعبرة وحدها
عن تقبل المصريين للبنات بالقبول الحسن ، وإنما جرت عادة
الأب المصرى إذا صور أولاده بجانيه ، أن يذكّر أنهم « أبناءه
وأحبته » ، وعلى نحو ما كان يسجل مع اسم كل ولد

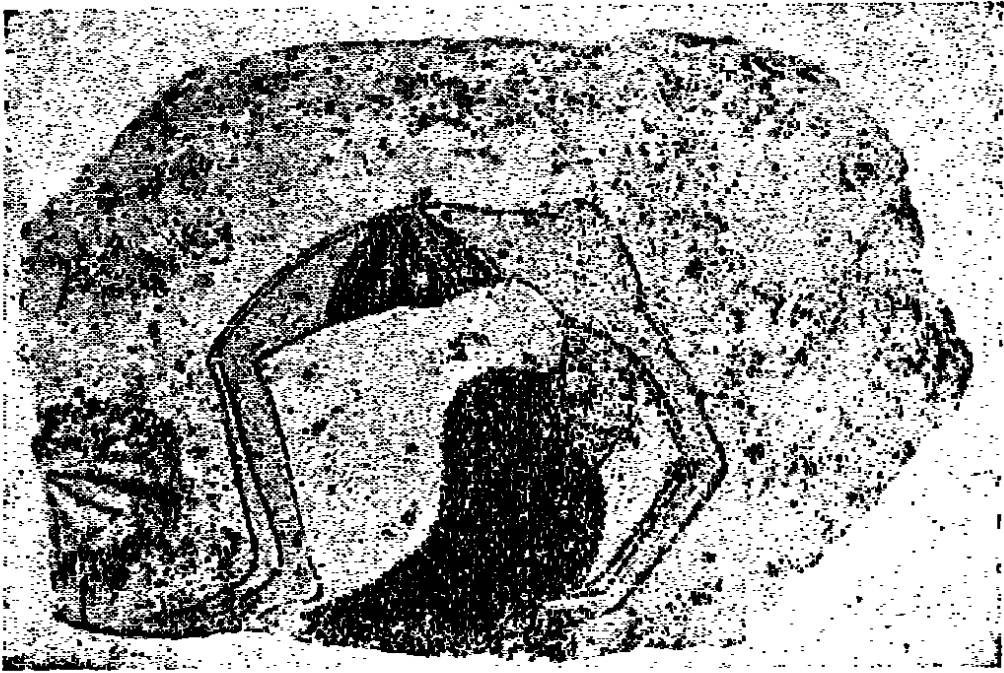
منهم أنه « ولده حبيبه » ، كان يسجل مع كل بنت منهم أنها . « بنته حبيته » . وهكذا شأن الأم ، كانت تصوّر فتاتها إلى جانبها ، وتؤكد دائماً أنها « بنتها حبيتها » .

وشغفت البنات بالعباب مرحة في جماعات صغيرة ، يشترك فيها خمس منهن أو ست ، أو ما هو أقل من ذلك أو أكثر . وأنعم الرسامون بتصوير ألعاب بنات الطبقتين الثرية والوسطى في شرائط ضيقة مستطيلة ، وسجلوا منها ألعاب الكرة الخفيفة ، وألعاباً راقصة مهبدة رشيقة ، وأخرى أكروباتية جريئة . ولعبت البنات الكرة بأساليب مختلفة تشبه أساليبها الحالية إلى حد كبير : امتازت من بينها لعبة المحاورة ، ولعبة أخرى تعلى فيها فتاتان ظهري زميلتين لهما ، وتتقاذفان كرتين في سرعة وخفة ، ومن فشلت منهما في تلقف إحدى الكرتين نزلت عن ظهر صاحبتهما لتصبح مراكوبة لها . وطريقة ثلاثة تلعب فيها كل فتاة بكرتين أو ثلاث كرات ، تقذفها وتلقاها بكفيها في سرعة وتتابع .



شريط متصل يصور أوضاع البنات حين يلعبن بالكرة
وحين الرقص التوقيعي وألعاب الأكروبات

وكن يؤدّين الألعاب الراقصة برفع ساق وخفض
أخرى ، مع التوقيع بالكفين لضبط الحركة ، أو تحريك
أجزاء الجسم في حركات رشيقة مهيبة مع النصفيق الرتيب
المرح . وكان من الألعاب الأكروباتية الحيّة أن تقلب
إحداهن زميلتها رأساً على عقب ، وترسل ساقها على كتفها
أو تنثنى بها إلى الخلف في اثثناءة تقرب من نصف الدائرة .



اثثناءة جريئة تشبه حركات الأكروبات أو الباليه الراقص

في مرحلة الأمومة :

شاركت المصرية زوجها في تربية أولاده في بعض سنوات
عمرهم ، وتشحت له عنها في بعض آخر . فشاركته رعايتهم في
مراحل طفولتهم وصباهم ، وأسلمت له زمام أمرهم وأمرها
في مراحل نضجهم .

وكان من صور رعاية الأم لولدها في صباه أن تحمل طعامه
وشرابه إليه في مدرسته كل ظهيرة . ودأبت إحداهن على ذلك
فترة طويلة ، فظل زوجها يحمدها صنيعها ، حتى نضج ولده ،
فوعظه وقال له : « ضاعف الحبز لأمك ، واحملها إن استطعت
كما حملتك ، فطالما تحملت عبثك ولم تلقه عليّ وعندما
التحقت بالمدرسة وتعلمت الكتابة فيها ، واظبت دوني على
الذهاب إليك بالطعام والشراب من دارها كل يوم . فإذا
شئت وتزوجت واستقررت في دارك ، ضع نصب عينيك كيف
ولدتك أمك وكيف حاولت أن تربيك بكل سبيل » .

(الحكيم آني ، من القرن السادس عشر ق . م)

وسجل الرواة المصريون فضل الأم على ولدها في أساطير
الدين . فرووا عن إحدى قديساتهم أنها تفرغت لتربية ولدها

وحرصت على تعليمه ، فالحقته بمدرسة أتقن أساليب الكتابة فيها
وتعلم منها فنون الحرب والقتال .

فى المجتمع :

ولم يأب المجتمع المصرى أن يعترف للأنى بأثرها فى شئون
التربية ومجريات الحياة العامة ، طالما تمتعت بسعة الأفق وأخذت
من الثقافة بنصيب . وعلى الرغم من أن مجالات الثقافة والتعليم
كانت من شان الذكور أساساً دون الإناث ، إلا أنه تبين من
وثائق فردية متباعدة أن بعض المصريات ساهمن فى نشاط
المجتمع بنصيب مقبول ، وتعلمن الكتابة والقراءة وتذوقن
الأدب وتراسلن به . وأشارت الوثائق إلى أميرة عجوز من أهل
القرن الثالث والعشرين ق . م ، اشتركت فى توجيه القضاء
وتصريف شئون الوزارة ، وأميرة عظيمة من أواخر القرن
السابع عشر ق . م ، اشتهرت بين قومها بلقب العارفة أو العالمة ،
وسيدة من عليّة القوم فى القرن الثالث عشر ق . م توات
تثقيف فتية من الأجانب باسم البلاط الفرعوني .

وأشارت وثائق أخرى إلى أنى تولت كتابة رسائل الملكة
فى عهدها ، وسيدة شاركت زوجها كتاباته وقراءاته ، وإن

اعترفت بأنها كانت دونه في جودة الخط وإتقان الكتابة .

وألمحت مخطوطات عصر الرعامسة إلى إناث من أواسط الناس
كنّ يتراسلن بعضهن مع بعض ، ويفضن في ترديد الأمانى
وأساليب الوصف . ونزلت إحداهن مدينة منف ذات مرة زائرة ،
وراسلت صديقة لها تسكن مدينة طيبة بالصعيد ، فكتبت لها بأسلوب
طريف عن روعة منف ، ووصفتها بأنها عادة شقراء ، وكتبت
بهذا الوصف عن أسوار المدينة البيضاء ومبانيها البيض . وكتبت لها
عن غرائد منف الناعمات ، وما يؤثره من أنواع الزهور وأكاليل
النبات ، وصورت لها رخاء المدينة ، وعقبت على رقى الحياة فيها
بأن البدوى الأشعث إذا نزلها تحول إلى مدني مرفقة ، يتضمخ
بالعطور ويتجمل بالزهور ، ووصفت لها مواكب الجنود حين
يشقون طرقات المدينة ، بين التهليل ودقات الطبول .

وأكد المعريون مخايل العلم لبعض رباتهم الإناث ، فتخيل
أدباؤهم ربة للكتابة دغوها سشات ، وتناقلوا أنها كانت أول
من حسب وخط بالقلم . وقصّ كهانهم عن المعبودة إيزيس
أنها قالت : « أرشدني أبي إلى سبل المعرفة » .

وجسد قضايتهم العدالة على هيئة معبودة أنثى ، وأطلقوا

عليها اسم ماعت ، وتناقلوا أنها كانت الابنة الوحيدة لربهم
الأكبر رب العدالة رع .

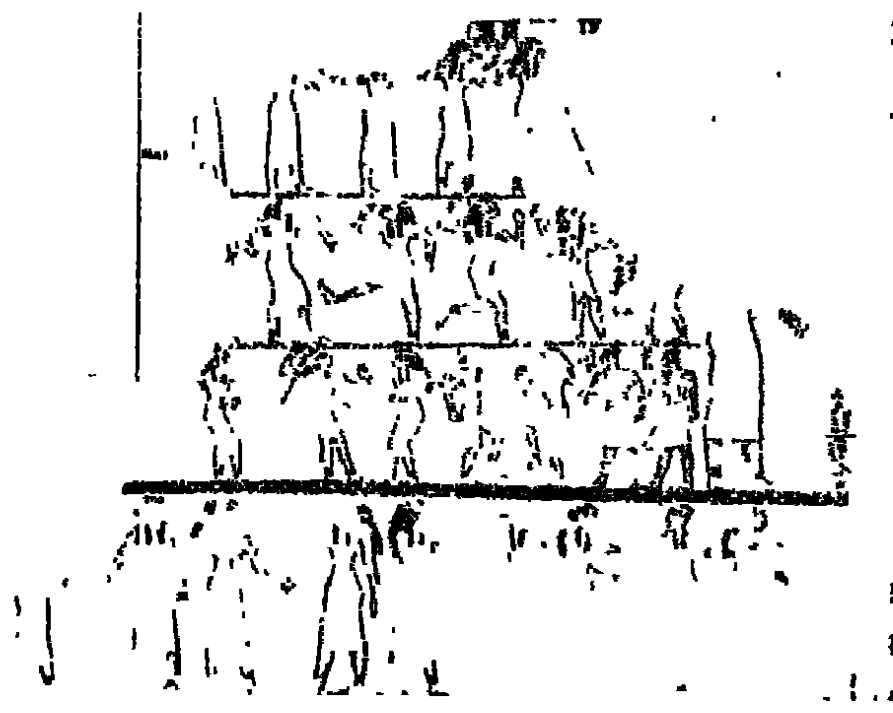
وتجارات بعض المصريين فأسهمن في مجريات السياسة
والحكم بنصيب كبير ، وأشهرهن الملكة خنت كاوس التي انتهت
إليها وراثته عرش الأسرة الفرعونية الرابعة ، على فترة من القرن
السادس والعشرين ق.م. وملكة يحتمل أن يكون اسمها نيت إقرتي
أو شيئاً من هذا القبيل ، ذكرت الروايات أنها كانت من أواخر
ملكات الأسرة السادسة ، أي أنها عاشت على فترة من القرن
الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين ق.م ، وسيدة من القرن
الحادي والعشرين ق.م حكمت إقليم أسيوط - باعتبارها وصية
على ابنها ، والملكة نفروسيك آخر ملكات الأسرة الثانية
عشرة في القرن الثامن عشر ق.م .

ولم تكن تجارب أولئك النسوة في الحكم والسياسة ناجحة
دائماً ، وانتهى تدخل بعضهن في الحكم إلى انتقال السلطان من
أسرهن إلى أسر حاكمة جديدة ، ولكن حسب تدخلهن في الحكم
والسياسة ما يدل عليه من أن الأنثى لم تكن تردد في أن تتقدم
إلى الرياسة لو دفعها الظروف إليها ، وأن المجتمع لم يكن يأبى
عليها نشاطها لو توقع منها الكفاية .

وتجرات بعض نساء الدولة الحديثة على تجارب أخرى ونجح فيها ، وأثرن في مجريات الأمور في أسرهن وفي شئون الدولة . وأشهرهن تقي شري جدة الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، ويذكر لها أنها ساهمت في تجهيز الجيوش في عهدا . وحفيدتها أحسن فقرتاري ويذكر لها أنها تمتعت بشهرة شعبية واسعة وأن محبة الناس لها ذهبت إلى حد تأليهها بعد وفاتها . وحفيدة حفيدتها حاتشبوت ويذكر لها أنها آثرت سمات الرجال وانصفت بعزائهم وسيطرت على العرش اثنتين وعشرين سنة كاملة . ثم تقي ويذكر لها أنها خرجت من صفوف أواسط الناس وتحكمت في قلب زوجها أمحوتب الثالث وئقلا ، وكانت ملوك الشرق وأمرأؤه وتملقوها . ونفرتيتي ويذكر لها أنها شاركت زوجها أخناتون حياة التفلسف ، وكانت شديدة التعصب لمذهبه في فلسفة الدين وقضايا التأليه .

وشاركت نساء العائلات الثرية الوسطى فيما يناسبهن من مجالات الحياة العامة ، وتولت بعضهن مناصب تلائمن في قصور الفراعنة ، وتوفر لبعضهن نصيب من الإشراف على بعض ما يتبع أزواجهن من الأعمال . وشاركن في مجالات الدين بنصيب كبير ، وكن يتطوعن فيما يلائمن من كهنة المعابد ، ويسهمن في المحافل

الدينية والأعياد ، وينطوين في سلك المنشدات عن هواية واحتراف . وتوفر لبعض فرق المنشدات حيت واسع ، لاسيما فرق منشدات منف وطيبة ومنشدات قصور الفراغة . وتكفلت معاهد صغيرة بتعليم الفتيات الرقص التوقيعى والرقص الدينى ، وكان يشرف عليها أحيانا رجال متخصصون . وهكذا لم يأب المصريون نشاط الأتقى فى حدود أسرتها ،



معهد صغير لتعليم الرقص الرهزى
(أو الرقص التوقيعى)

ولم يابوا الاستعانة بها فيما يناسبها من مجالات الحياة العامة
وأموال العبادة والمعابد ، واطمأنوا إليها في تربية صغارها ،
ولم يأبوا عليها تدليها لهم في طفولتهم ، ورعايتها لهم في بداية
صباهم ، ولكنهم تخوفوا عواقب لينها وتدليلها لهم في مراحل
نضجهم ، وأصروا على أن يتولى أبوهم أمرهم دونها .

وتخوف حكيم مصرى مغبة اللين بين زوجته وولدها فقال
له : « طوبى لمن كان جاداً إزاء أمه ، فهو جدير بأن يتبعه
الباس كافة » وعنى الحكيم بذلك أن من يعتاد الجدية في داره
يسهل عليه أن يعتاد الرياسة خارجه ، وأن حياة اللين والتدليل
تفسد على الشاب شخصيته .



الأب في الأسرة

المصريون إلى تجارب الأب في مجتمعه ورجولته في **الطائفة** داره ، وحكموا على أثره في أسرته من خلال سلوك ولده ، وربطوا بينه وبينه بقولهم : « نهج الولد نهج والده » على نحو ما نقول الآن : « الولد سرُّ أبيه » وكانوا إذا رضوا عن فتى قالوا : « أنجبت روح أبيه » أو قالوا : « ما أصلح تهذيب أبيه » .

وقدّر الأب المصري مسؤوليته ، وكان إذا نجح فيها وأحب أن يترحم الناس عليه بعد وفاته ، قال : « أيها الناس ادعوا لفلان الذي كون أسرته وربى أولاده ، وفعل الحسنى على وجه الأرض » . ورتب المجتمع على الوالد واجبات إزاء أولاده صورها الحكيم بتاح حوتب فقال : إن عليه أن يهتمس كل شأن فاضل لولده المطيع ، وأن ترى عيناه وتسمع أذناه ما ينفع ولده ، وأن يفيدته بخبرته ، ويسعى إلى رفع مستواه كلما استطاع إلى ذلك من سبيل .

وفي مقابل مسؤوليات الأب ، افترض المجتمع له حقوقا واسعة على ولده ، أولها الطاعة والاحترام ، ولم يَأْب عليه أن يقوم

سلوك ولده وياخذه بالشدة إذا ضل ولم يعمل بصالحه ، سواء بالضرب أو التأنيب أو التبرأ منه جملة . وصور يتاح حوتب سلطة التقويم هذه فقال :

... « إذا ضل ولدك وخالف نهجك ولم ينفذ تعاليمك ، وساءت تصرفاته في دارك ، وتحدى كل ما تقول ، وتدنس فمه بقول قبيح ... ، فانبذه ، فإنه ليس ولدك ، ولم يولدك ... ، انبذه ، واعتبره شخصا أدانه الأرباب ولعن الرب خطايا ... »

واستذكر حكيم آخر أمر الأب إذا تهاون في إظهار حزمه عند الضرورة ، وأصر على أن الوالد الرحيم شيء ، والوالد اللين شيء آخر ، وأنه ما من ابن هلك من تأديب أبيه ، وأن العصا والحياض يقيان الابن شر الفساد .

وصور عجريات الأمور في الأسر المصرية المتوسطة بضع رسائل من أوائل القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، كتبها والد يسمى حقانخت إلى ولده الأكبر مرسو . ويتضح من هذه الرسائل مدى الإشراف الذى افترضه الآباء لأنفسهم على أولادهم ولو بلغوا سن العمل ، ومدى الفوارق الطبيعية في معاملة الوالد

لأبنائه وفق أعمارهم ، ومدى الحرص من رب الأسرة على جواريه ومقتنياته .

ترك حقانخت أولاده الخمسة في طيبة ورحل إلى منف ليباشر أعماله فيها لفترات طال بعضها عن العام . وعهد إلى ولده الأكبر مرسو بأرضه ومخازن غلاله ومدخرات داره ، كما عهد إلى ولد آخر يصغره بخمس وثلاثين رأساً من الماشية شارك جاره فيها . وكتب حقانخت إلى ولده الأكبر بضع رسائل من منف ، تظهر فيها شدته عليه وتحمله إياه مسئوليات الأسرة كاملة . فكتب إليه قائلاً : إذا طغى الفيضان على أرضي فالويل لرجالي ولك ، ولن ألقى المسئولية إلا عليك . وقال : عليك ان تبذل الجهد في أرضي واجتهد بأقصى ما تستطيع . اعزق الأرض وتدخل في كل عمل . وكان لا يفتأ يكرر عليه قوله : إنك سعيد إذ أعولك . ولماذا أعولك ؟ وإذا اجتهدت دما الباس لك . وإذا لزمت الهدوء فإنه نعم العمل .

وتحلى حقانخت عن شدته بالنسبة إلى ولده الأصغر سنفرو ، فكتب عنه إلى أخيه يقول : إذا لم يكن لسنفرو ما يكفيه معك في الدار فلا تتوان في إخباري ، فقد بلغني أنه غير راض . اعتن به كثيراً واكفل له مؤوته ، وأبلغه سلامي ألف مرة ، بل

ألف ألف مرة ، اعتن به وأرسله إلى بعد أن تحرث الأرض مباشرة .
ثم كتب عنه ثانية ، فقال : إذا كان سنفرو يريد أن يعتنى
بالماشية فدعه يفعل ، فهو لا يحب أن يجرى معك هنا وهناك
في حرث الأرض ، كما أنه لا يريد أن يأتى إلى هنا ، وعليك
أن تمتعه بكل ما يحب .

وكان للرجل ولد صغير يدعى « ساحتحور » اشترك في
مشاكسة جارية أبيه مع خادمة تدعى سنن ، فلم يزد حقانخت
على أن صب غضبه على ولده الأكبر والخادمة معا ، وتغاضى عن
شقاوة الولد الصغير ، فقال لمرسو : اطرده الخادمة سنن من دارى
في الحال ولكن احرص على أن يتردد ساحتحور عليك يوميا ،
وإذا بقيت سنن في الدار يوما واحدا وأساءت إلى جاريتى فأنت
الملوم . وإلا فما الذى تستطيع جاريتى أن تفعله معكم وأنتم خمسة
اولاد ؟ سلم لى على أمى إيبى ألف مرة بل ألف ألف مرة !

وماود حقانخت الحديث عن جاريته في خطاب آخر ، فقال
لولده : لاحظ أنها جاريتى ، وأنه ينبغي أن تعامل جارية الإنسان
بالحسنى ... ، وإلا فكيف أعيش معكم فى دار واحدة إن لم
تتحموا جارية من أجل خاطرى ؟

ولم تختلف سلطة الأب فى الأسر الثرية عن سلطته فى الأسر

المتوسطة ، إلا باختلاف الوسط واختلاف الظروف . فقد تعتمد
تحتسب الثالث أن ينشئ ولده البكر أمنحوتب تنشئة جادة
صارمة ، وارتضى له ولم يزل صبيا صغيرا أن يفارق قصره في
طيبة ليقوم مع مرييه في قصر الحكم بمدينة جرجا . ولما اشتد عوده
أرسله إلى منف وألحقه بمسكرها الكبير ليشاطر جنوده معيشتهم
ويتم تربيته العسكرية بينهم . وعهد إليه بترية خيوله الحربية
وتدريبها وعلفها . ولم يعلن رضاه عنه إلا بعد أن تيقن أنه
« استطاع أن يولى ظهره لشهوات الجسد وابتغى لنفسه حياة
الجديّة على الرغم من صغر سنه » ، على حد قوله .

على أنه أيّا ما كان من سلطة الأب المصري على
أولاده ، فهي جد معقولة إذا قورنت بأمثالها في مجتمعات قديمة
أخرى ، فقد أباح الإمبرطيون الإغريق للأب حق الإحياء
والإماتة على ولده في طفولته ، وأباح الرومان للأب حق رهن
ولده وبيعه .



أدب الأبناء

الحكمة المصريون تعاليمهم بما يتفق ومطالب مجتمعتهم
والروح العامة التي سرت بين طبقاته ، فوافقوا
الآباء على ما فرضوه لأنفسهم من حقوق الطاعة والإشراف على
أبنائهم وأكدوها لهم ، وقالوا معهم بأنه ما من مولود يستطيع أن
يبلغ الحكمة من تلقاء نفسه .

ولكنهم آثروا التوسط في تعاليمهم ، واستحبوا من الأب
أن يشفع أمره ونهيه بوسائل الإقناع ، ونهوا الإبن إلى أن
فضيلته تعود بالفع عليه وحده ، وأن خير ما يمكن أن يرثه عن
أبيه هو توجيهه إلى تحرري العدالة ودعوه إلى أن يجد نحو
الإنسان من أجل نفسه وأجل الناس ، بشروط ثلاثة ، وهي :
أن يرضى بما قدر له ، وأن يتجاوب مع الأوضاع القدسية التي
ارتضاها الأرباب والفراغنة لمجتمعه ، وأن يراعى التوسط في
معاملة رئيسه ومرءوسه ، ومعاملة نفسه ومطالب بدته ، واختيار
مناسبات صمته ومناسبات كلامه .

وكان من الطبيعي أن يتفاوت رضا الأبناء بما دعاهم الآباء
والحكما ، إليه ، فيكون منهم البار والعاق ، والصالح والطالح ،

والمطيع والعاصي ، والواعي والغافل . فشاعت بين أختيارهم عادة احترام الإبن لأبيه ، وقيامه عند التحدث إليه ، ومحاطبته على استحياء ، وتوقير كبار السن عامة . وصورت هذه العادات قصص مصرية قديمة كما صورها الفساقون ورددوها الأبناء فيما كانوا يكتبونه عن سير حياتهم .

ومن أقدم الفصوص التي صورت آداب البنوة ، قصة تعرف اصطلاحاً باسم قصة خوفو والسحرة . وهى قصة شاء قصاصها أن يصور خوفو صاحب الهرم الأكبر أباً ودوداً كأختيار الآباء ، يجمع أولاده حوله ويسامرهم ويسمع من كل واحد منهم ما وسعه علمه عن أخبار الماضى وأهل المعجزات فيه ، ولكنه ، أى القصاص ، تعتمد فى الوقت نفسه أن يسجل أدب الأمراء ، فقدم لحديث كل امير منهم مع أبيه بقوله : وعندئذ نهض الأمير (فلان) واقفاً ليتحدث ، ثم قال لأبيه إني أقص على جلالتك كذا وكذا ...

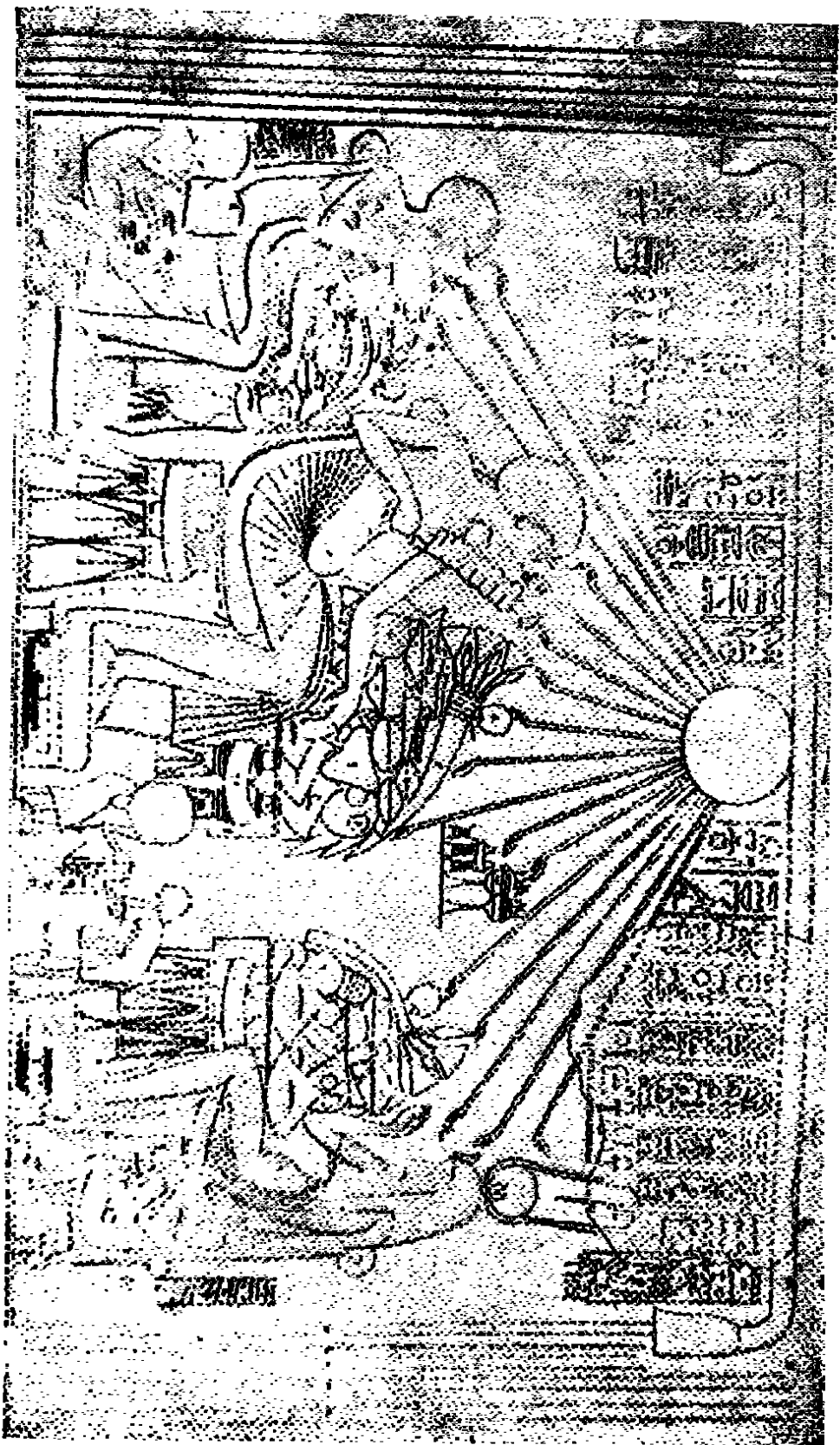
وصور الرسامون والمثالون المصريون عدداً من الأوضاع التي ارتضاها الآباء من أبنائهم فى بعض المناسبات ، فالولد عالماً ما يصورونه واقفاً مع أبويه الجالسين ، والبنات تظهر معهن واقفة أو جاثية ، وقلمها ظهرت جالسة . والولد والبنات يفتشان

الحصبر أو يجلسان على مقاعد منخفضة حين الطعام وحين يجلس
أبواهما على المقاعد المرتفعة . ولو أنه لم يكن من الحتم بطبيعة
الحال أن يتقيد الأولاد والبنات بهذه الأوضاع دائماً ، وإنما هي
أوضاع مثالية كانت تستحب في المناسبات فقط .

وحرص الأبناء الكبار على أن يسجلوا اعترافهم بحقوق
الأبوة وواجبات البنوة ، فكتب أحدهم في سيرة حياته يقول :
« كنت عكاز الشيخوخة في يد أبي ما بقي على وجه الأرض ،
وكنت أروح وأغدو وفق أمره ، ولم أخالف أبدا ما قرره فيه ،
ولم أعود أن أتطلع إليه بنظرات كثيرة ، وكنت أطأطئ
بوجهي حين يحدثني » !

ولا يزال صدى بعض هذه الآداب باقيا في مجتمعنا الريفي
إلى اليوم ، ومثله العادات التي تستحسن من الصغار عدم حضور
مجالس الكبار ، وعدم الجلوس وهم وقوف ، وعدم إبداء الرأي
أمامهم ، وعدم معارضتهم فيما يرتأون .

غير أن قصر سلوك النشء المصري القديم على هذه النواحي الطيبة
من السلوك ، لا يصور الواقع كله ، فليس من شك في أن الميل
الطبيعي من الشبان إلى التحرر من كل سلطة تفرض عليهم ،
كان له أثره في تكيف سلوك بعضهم إزاء سلطة الآباء وتعاليم



مأدبة لأسرة أختاتون ، تجلس بناتها الصغار على مقاعد منخفضة ويبتلى الكبار مقاعد المرفوعة

الحكام . ولم تحل الآداب المصرية من الاعتراف بهذه الحقيقة ،
فقال الحكيم إتيح حوب لولده فى حديثه عن الآباء والأبناء :
« ... وكم من ولدٍ فى عناء ، وأم ولود تجد غيرها أهذا
بالأمنها » !

وصورت مصادر مصرية أخرى انصراف بعض الفتيان إلى
اللهو ومعافرة الخمر ، وإيثار مجالس الغناء والنساء . ووصفت
بعضهم بأنه قد يساه ترويض الأسود وكبح جماح الخيول
وتدريب المعجاوات حتى ترقص وتطيع ، بينما لا يسهل ترويضهم
هم أو كبح جماحهم أو تعويدهم على الطاعة . ووصفت بعضاً آخر
بأنهم يتسكعون من حى إلى حى تسبقهم رائحة الخمر ، فإذا
وصل أحدهم إلى حارته جمع البنات حوله وجلس يضرب يديه على
بطنه كأنه يضرب على الطبل !



تقاليد الأسرة

للقرى من تقاليد الحياة العائلية في مصر القديمة **أساطير** ثلاث سمات وهي : سمة التوسط في تصوير حقوق الرجل والمرأة . وسمة التوسط بين حدود الجدية والحشمة وحدود المرح والاستمتاع . وسمة الاستقرار وما ترتب عليها من رغبة أفراد الأسرة في دوام ترابطهم في الدنيا والآخرة ، وهو ترابط لا بد أنهم اختافوا في تصوره وتصوير حدوده ، ولكن الفنانين حرصوا دائماً على تأكيدهم في لوحاتهم التصويرية الكبيرة والصغيرة ، فحرصوا على أن يصوروا الأبوين متجاوزين في أغلب الأحوال ، وعلى أن يجمعوا أولادها حولها ، أو يصوروهم يفترشون الحصير تحت أقدامها . وإذا خرج رب الأسرة إلى صيد الأسماك والطيور بقاربه الخفيف ، لا يصورونه يستأثر بصيده وحده ، وإنما يصورون ولده معه ليحمل له صيده أو يساعده عليه ، وتكون زوجته من خلفه تسنده يديها أو تتساند عليه ، وتركع ابنته لدى سافيه تقطف زهور الماء لنفسها وأسرتها ، أو تمسك سوق البردى واللويس لتحفظ توازن

القوارب حين يندفع أبوها إلى الصيد بحريته أو عصاه .



ثرى تشاركه أسرته لهوه بصيد السمك والطيور
وقد نسى الفنان أن يصور حربة الصيد بين يديه

والحياة العائلية فيما ارى انهم المجتمع المصرى من شئونها ثلاث
سمات أخرى ، وهي العدالة ، والتدين ، وعدالة التوريث

بين الأنبياء ، وروح السباحة في معاملة الحدم والاتباع .
وينم عن غلبة التدين الأسرى في مصر القديمة قرائن عدة ،
منها ما أسلفناه من شيوع الطابع الديني في أسماء المواليد ، ورغبة
الوالدين في التعبير بأسماء أطفالهم عن ارتباطهم بالآلهة ، والتوكل
عليها ، وابتغاء حمايتها ، والإقرار لها بالفضل والنعم . وينم عنها
كذلك أنه مامن حائلة من العائلات المصرية ذكرت على الآثار
أو صورت ، إلا انتسب فرد منها أو أكثر من فرد إلى خدمة
المعابد والأرباب . وقد يكون في هذا الانتساب نوع من الادعاء
في بعض الأحوال ، ولكنه ادعاء لا يخلو في الوقت نفسه من دلالة
على أن الأسرة المصرية كانت ترى مثلها الأعلى في التدين ، وأن المجتمع
كان يتطلب منها ضرورة الإيمان بالآلهة وتقديس معابدهم .

ولم يحرص رجال الأسرة وحدهم على التدين وخدمة
الأرباب ، وإنما كان للنساء كذلك نصيبهن من التقى والتدين .
وكانت بعض بيوت المتدينين تتضمن محاريب للعبادة ، وصوراً
للأرباب ، وكان ذلك يوحى إلى أفراد أسرهم بقربهم من ربهم
ويوجه أنظارهم إلى ما يرضيه أو يغضبه .

وصورت روح التدين في العائلات البسيطة ، لوحة لرجل
رسام يسمى نبي أمون ، من أهل القرن الحادى عشر ق. م ،

مرض ولده الأكبر مرضاً شديداً وظن الرجل أن المرض أصاب
ولده لذنب أتاه ، فاتجه بدعائه إلى ربه يقول له « لئن شفيت لى
ولدى لأقيم تذكراً باسمك ، وأسجل لك عليه نشيداً مكتوباً »
فلما أجاب الرب دعاءه ، أوفى بعهده ، وأقام نصيباً كبيراً
باسمه وأسماء أولاده الأربعة ، وصورهم عليه يصلون معه ،
ويتوجهون بالشثناء على من حبا أسرهم بفضله . وسبح هو ربه
قائلاً : « أنت رب السموت ، أنت من تجيب دعوة المسكين .
دعوتك وأنا مهموم ، فليت الدعاء وأنقذتنى » .

ودعا نبي أمون الناس إلى تقوى ربهم ، وأوصاهم أن يقصوا
قصته لكل ابن وابنة ، وللصغار والكبار . وروى لهم أنه لما
دعا ربه ، وجدده يلبي نداءه كأنه ريح الشمال يسبقه نسيم لطيف
عليل . . ، وعقب على رضا ربه بقوله : « وهكذا إن مال العبد
إلى الشر ، فالرب ميال إلى الصفيح ، وما حدث أن قضى رب طيبة
يومه غضبان ، فغضبه يتلاشى بعد لحظة قصيرة » .

ولم يؤد تدين الأسرة المصرية إلى إلزامها التزمت المكروه ،
وإنما كان ديناً سمحاً لا يرى أهله مانعاً من أن يحيا أعياده بالرقص
والموسيقى والأناشيد .

* * *

لم تتضمن وثائق العصور المصرية المبكرة قواعد صريحة لتقسيم الإرث بين البنين والبنات ، ولكن جرى العرف في ذلك مجرى القانون ، واستدر كل من لأبوين يوصى لأولاده بما يراه نافعاً لهم من أملاكه الثابتة دون حرمان الفتاة أو غيرها . فإذا كان للزوج أولاد من زوجته الأولى المتوفاة أو المطلقة ، كان عليه بحكم العرف أن يحتفظ لهم بحقوقهم في ميراثه إن كانوا صغاراً ، أو يعهد إليهم به إن بلغوا سن المضج .

فإذا مات أحد الوالدين دون وصية ، واختصم الأبناء ، حرص الحكام والقضاة على ألا يحرموا ابناً منهم من نصيبه المقبول . وكثيراً ما ردد من ولوا القضاء والحكم قولهم في سير حياتهم : « إني لم أحكم بين أخين بحيث أحرم ابناً من ممتلكات أبيه » .

وعهدت الأسرة المصرية بأوقافها إلى الابن الأكبر فيها ، في بعض عصورها ، ثم جعلت له حق الإشراف على ميراثها كله في عصور أخرى . ولما كانت في الحالتين لم تسمح له بأن يتصرف في الميراث والأوقاف لحسابه الخاص ولا أن يحتجز الأوقاف لأبنائه دون غيرهم ، واشترطت عليه أن يظل إشرافه عليها فيما يفيد أفراد الأسرة أحياء وأمواتاً .

وترتب على هذه الأوضاع أن حرص بعض الأبناء الكبار على أن يرددوا في سير حياتهم التي نقشوها على جدران مقابرهم، قولهم : « أعددت ضريحي وأوقافه من ثروتي الخاصة ، وليس من ممتلكات أبي » ، وعوا بذلك أنهم كونوا ثروتهم وممتلكاتهم بأنفسهم ، ولم يستغلوا حقوق إخوتهم في ميراث أبويهم ، في مبانهم الخاصة .

وعندما وفد المؤرخ ديودور الصقلي على مصر ، أعجبه حكمة موارثها ، فقال عنها : « التزم الآباء المصريون بترية أبنائهم جميعا .. ، ولم يعودوا على أن يعتبروا أى ولد ابنا غير شرعى ، ولو كان ابن جارية مشتراة » .

ولا يبعد أن آباء وأمهات وإخوة شذوا عن تقاليد الموارث السابقة ، بما لا نعرفه ، ولكن حسبنا أن المجتمع كان يرتضى العدالة فيها على وجه العموم ، وأن العادة الغالية في الاحتفاظ للأولاد والبنات بحقوقهم في الإرث ، كانت تساعد على حفظ شخصياتهم وفردياتهم واضحة داخل الأسرة وخارجها .

* * *

استعجبت الأسر المصرية الثرية السباحة مع أتباعها وخدمها ، وكان لذلك أثره في تهذيب حواشى أبنائها ورقة طباعهم . فكان

من ملاك الأراضي من يسمح لرفيقه بالاستغلال عند غيره لمدد معينة، ثم يسمح لهم بأن يتسلموا أجورهم منه بأنفسهم، أو يشترط لهم على المستأجر ألا يرغمهم على العمل في يوم يشتد حره . ولم يَأْب بعض المصريين أن يعلن حق الأجراء وأولياهم الأقربين في الاحتجاج على تكليفهم بغير ما استؤجروا له .

ولسنا نشك مرة أخرى في أن أسراً مصرية ثرية تجاهلت هذه الساحة وانقلبت منها إلى ضدها، ولكن حسبنا أن تقاليد المجتمع المصري لم تتمسك بالفواصل الحادة التي فرضتها المجتمعات القديمة الأخرى بين مواطنيها وبين أرقائها، ولم تذهب مذهب الأغريق والرومان في اعتبار الرقيق متاعاً يحل لصاحبه تدميره وإهلاكه .

وليس أدل على حسن الأثر الذي تركته ساحة المصريين مع أتباعهم في نفوس أبنائهم أحيانا، من أن نجد شابا مصرية يرسل أباه فيقول له: « أرجو أن تكتب إلى عن حالك وأحوال خدمك وكل ما هم فيه، لأن قلبي مشتاق إليهم كثيراً جداً » . وتعدى رفق الأوساط المثقفة بالأتباع إلى الرفق بالحيوانات الأليفة، فخصص أطباؤهم مخطوطا طبياً لعلاج عيوت وأسنان العجول والكلاب . وبلغ من تأثير هذا الرفق على أخلاق

الأولاد ، أن روت قصة مصرية عن غلام فيها أن العرافين أنذروه
بأنه سوف يموت مقتولا ، وأن مقتله قد يتأتى بسبب كلبه ،
إن لم يكن من جراء تمساح أو ثعبان ، فلما أرادت خطيبته أن
تقتل الكلب إبعاداً لشربه عنه ، أبى واستمسك به ، وترك أمره
وأمر كلبه للأقدار ، وقال : « بحق الإله رع لن أدع أحداً يقتل
كلبي الذي ربيته منذ أن كان جروا » .

وكان من الطبيعي أن يختلف حظ الأسر الفقيرة عن حظ
الأسر الواعية فيما ترتب على الأوضاع والخصائص السابقة في
تربية الأبناء وتكييف طباعهم . ففي الأسر الفقيرة لم يكن الأبناء
يتأثرون بمعاملة السادة لأبويهم . وفيها لم يكن الفقر محرم
الولدان من بعض متع الحياة وحدها ، وإنما كان يحرمهم من
بعض الصحة أحيانا . وفيها كان الولدان يشاركون آباءهم فيما
يضايقون فيه من أمور الدنيا منذ سنينهم المبكرة ، ويكدهون
معهم في سبيل الكفاف ، ويخرجون معهم إلى الفلاحة والصناعة
بنين وبنات . فأولاد الريف وبناته إذا فارقوا طفولتهم المبكرة
وفارقوا مرحها البريء المحدود ، وودعوا اللهو بعرائس الطمي
والقش والبوص واللعب في الأزقة ، كانوا ينصرفون إلى
ما يناسبهم من شئون الفلاحة ، كقتلاع الحشائش ، وبذر الحب

وجمع سنابل الغلال ، والنقاط ما يتساقط منها حين الحصاد ،
وذود الطيور عن كروم العنب بالعصى الصغيرة والمقاليع ، سواء
فى أرض آبائهم أم فى حقول أخرى يؤجرون على العمل فيها
بأجر يسير . وأولاد المدن كانوا يتجهون إلى ما يشبه هذا
الاتجاه ، فيعمل الصبيان فى صناعة آبائهم صناعاً كانوا أوصيادين
أو بائعين ، وتضطر بعض البنات أحياناً إلى العمل فى مصانع
الغزل والنسيج والغسيل تحت إشراف النسوة أو تحت إشراف
الرجال .

ومن العجيب أنه على الرغم مما أحاط بأفراد الأسر المصرية
الفقيرة من عنت الدنيا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يسعخرون
أكثر من غيرهم فى مشروعات الدولة وخدمة الحكام ، إلا أن
تكوينهم الوجدانى لم يختلف كثيراً عن التكوين الوجدانى
المعتدل لمواطنيهم أهل الطبقتين العليا والوسطى . فالنفسية
البسيطة الراضية والروح الصبورة المتفائلة ، والتدين الفطرى
السادج ، والطباع الفكهة المرحة ، كل أولئك كان يتمثل فى
جماهير الفلاحين والرماة والعمال على نحو ما تمثل فى كثير ممن
كانوا يسودونهم ويستأجرونهم من أهل الطبقات الأخرى .

وتوحى أغاني الكادحين على الأرض وهم يحرقونها ويذرون
الحب فيها وينقلون غلالها إلى الصوامع ويستقبلون تبشير الفيضان
عليها ، كما توحى أهاليج الرعاة وحاملى المحفات ، بأن الله شاء
أن يعوضهم بروحهم الصبورة المرححة عن بعض ما حرموه من
متاع الدنيا وضرورياتها !

يعمل المزارعون فى حرت الأرض منذ صباحهم الباكر ،
فيهنون على أنفسهم مشقة العمل ، ويرددون :

اليوم زين والأبدان ريّانة
والثيران تجرّ والسما على هوانا !

وينقل آخرون الغلال ، ويطول يومهم ، فيعلنون شكائهم
فى موال يخففون به كربهم ، ويقولون :

نقضى النهار تنقل القمح والغلة
والشون فاضت والأكوام بتدلى
ووسقنا المراكب وفاضت الغلة من برّه
والريس يسوق وقلوبنا معادن ما تتبرى

ويخرج أربعة من الخدم يحملون سيدهم فى محفة فيخدعون
أنفسهم عن ثقل ما حملوا به ، أو يتكئون على ثقل ما حملوا به ،

فيقولون : « ما أحلاها وهي مليانة عنها وهي قاضية » !
ويشقى الأتباع في إعداد حاجيات سيدهم ووسائل متعته ،
فيخدعون أنفسهم عن حرمانهم من أمثالها ، بادعاء القربى بينهم
وبين سيدهم ، ويتحدثون عنه باسم تدليل ، كأنما ارتفعت الكلفة
بيده وبينهم ، فيتحدث أتباع الوزير بإباح حوتب عنه باسم إبي ،
ويتحدث أتباع آخرون عن سيدهم الوزير كايجمعني باسم ممي .

ويمكن أن ترد الروح الراضية القانعة المرححة لأولئك
الكادحين إلى ثلاثة عوامل ، وهي : أنهم تطبعوا تلقائيا وعن
غير وعي ، بطاع يثتهم الفسيحة المنبسطة الهادئة السمحة ، التي رئت
من مظهر الصخب العنيف ومن التقلب . وأنه شاع في مجتمعاتهم
وازع ديني أصيل دفع ذوى القلوب الرحيمة من الرؤساء
إلى التخنيف عن مرءوسهم وأجرائهم والرافة بهم ، طمعا في
رضا الأرباب وجبا في جزاء الآخرة . وعبر عن هذا الوازع
الديني رجل مصري أشرف على ضيعة أخيه عشرين عاما ، فكتب
يقول : « لم أوذ شخصا فيها لأنه وقع تحت طائفتي ، ولم استعبد
واحدا من أهلها ، وكنت إذا جادلت أحدهم أرضيته ، ولم يحدث
إطلاقا أن نمت غاضبا على فرد منهم » .

وانه شاع إلى جانب هذا الوارع الدينى وارع عرفى كريم استعجه بعض الحكماء والرؤساء وأرادوا أن يخففوا به مرارة الحقد والحرمان فى نفوس الفقراء، ويتعجبوا به ما يتركه الحقد عادة من التواء فى الطبع والوجدان . وأراد يتاح حوتب أن يصور لولده حكمة هذا الوارع، فى صورة عملية مقنعة، فقال له : « ارض العوام فإن النعم لا تكمل من دونهم » .

ولا يدل ذلك بطبيعة الحال على مثالية المصريين المطلقة فى معاملة الأجراء ولأتباع، وإنما هى مثالية كانت مستعجة فحسب، قد يتعمدّها بعض السراة، ويتغافل عنها بعض آخر ، وقد يتظاهر بها بعض ثالث دون اقتناع .

وسرت بين أخيار الكادحين وبعضهم روح من التراحم والتعاطف ، يسرت عليهم مذقات الحياء وأضفت عليهم حظاً من هدوء النفس وسلامة الوجدان . وعبرت النصوص المصرية عن هذه الروح باللفظ اعتاد أخيار الأتباع والصناع أن ينادوا بعضهم بعضاً بها ، فالجزار الطيب إذا طلب مساعدة زميله فى شد ساق الذبيحة ، قال له « خد عليك يا خُويا » ، والنساج الطيب إذا نادى زميلته قال لها « أسرعى يا أختى » ، وإذا تخلى أحدهم عن ألفاظ الأخوة نادى زميله بقوله « ياللى معايا » . وإذا

فرغ أحدهم من عمله شجعه زميله الودود بقوله « شيء بديع
للغاية » وإذا وعده أن يشاركه العمل قال له « سأعمل
ما يرضيك » .

ولا يبعد أن حياة أولئك الكادحين في أسرهم ومع أولادهم
كانت على ذات الحال من البساطة والتعاطف في غالب أمرها ،
يقل فيها الكبت والتعقيد، وإن لم تخل من التقشف والحرمان .



تقاليد الزواج

تراوح اختلاط الفتى والفتاة قبل الزواج في مصر القديمة بين اتجاهين : اتجاه وقور متحفظ أصرّ الآباء على تنفيذه في البيوت ، وزكاه المعلمون في المدارس ، ونشره الحكماء في المجتمع ، وكانوا يحذرون فتيانهم فيه من زيارة البيوت في غيبة رجالها ، أو دخولها بغير استئذان ، وينكرون على زائر الدار ، رئيساً كان لرب الدار أو شقيقاً أو صديقاً ، أن يخالط فتيات الدار . وكان اتجاهاً استجاب له معظم الفتيان والفتيات بوحى الطاعة الغالبة وحب الاحتشام .

واتجاه آخر أحلّه أهل العشق والهيام وأشقياء الفتيان والفتيات ، وصورته عنهم قصائد الغزل التي كانوا يتداولونها ويتغنون بها .

ويصر أحدهم في هذه القصائد أنه لو فصل بينه وبين معشوقته بحر تخطاه ، أو تمساح لاقاه . ويستصرخ آخر عدالة الأرباب وعون الربات ، عساهم يهيئوا له لقاء محبوبته ، دون أن

يتوهم في لقائه بها ما يغضب الرب أو يجافي الدين . ويود ثالث
لو تمارض وزارته معشوقته فيمن يزورونه من الأقارب
والخلان . ويتمنى رابع لو أصبح باب فتاته من فئس جاف
ومزلاجه من نبات فيدفعه إليها غير وجل ولا هياب .
وتتقطع الأسباب بخامس فيتمنى أن يسحر ويصبح وصيفة
لمعشوقته حتى يحل له رؤياها ، أو يصبح تابماً يسمع رغباتها
ونواهيها ، أو يسحر خاتماً يعلق بإصبعها ولا يتركه . ويكفر
سادس فيتعوذ برقية يقول لربه فيها : « لأن لم تجعلها تتبعني
فلسوف أشعل النار في بوزيريس وأحرق أوزيريس » . وكان
أوزيريس هذا الذي ود العاشق إحراقه ، أكرم رب عبده
المصريون ، وكانت بوزيريس بلده الأصبلة ومشوى ضريحه .

وتمنى بعض الفتيات ما يتمناه أشقياء الفتيان ، ويضقن
برقابة الأم تارة ، ويستعذبونها لتشويق ابن الجيران تارة سواها ،
ويرضين أن يكتوى المحب بنار الجوى تارة ، ويبحن بما يكتوين
به من نار العناد تارة سواها . ويذهب العناد بإحداهن فتعلن
لأهلها أنها لن تتخلي عن حبها ولو آذوها بالمصى وجريد
المخيل والشوم ، أو ساقوها شمالاً إلى فلسطين وشردوها
جنوباً إلى السودان . وتتجراً أخرى فتخطر رائحة غادية أمام

أليفها عساه يعلق بها ويهجر أمه وأشقاءه وسقيقاته من أجلها .
وتتعلل ثالثة بالخروج لصيد الطيور عسى فتاها أن يقع في
حبائلها عوضاً عن الطيور ، أو تتعلل بالسباحة في غدير قريب
فيراها بغلائلها ، ويتحرر من الحذر وخشية التقاليد !

وليس من شك في أن نزواج الأقارب كان يحلّ بعض
مشكلات الزواج ، وأن اختيار الأبوين للعروس أو العريس
كان يحلّ بعضاً آخر . فإذا كانت العروس من غير أهل العريس ،
اشترط الأبوان أن تكون « معروفة من أهل قربتها ويتوفر فيها
شرطان » وإن كنا لا ندرى ماها هذان الشرطان !

ولم يكن من اليسير على الفتیان أهل الغزل أن يقنعوا في
زيجتهم بشرطين ، وإنما قد يجمع الحياء ببعضهم إلى زوجة
مثالية تجمع بين طراوة الجسم وخفة الروح ورقة الطابع ،
يصورها أحدهم فيقول :

« بهية الطلعة ، بشرتها وضاء ، نجلاء العينين واللحظ ،
حلوة الشفتين ، عذبة الحديث ، لا تنطق بفضول ، طويلة
الجيد ، نيرة الثدي ، كستنائية الشعر ، . . . أناملها كالزهر ،
مستوية العجز ، نحيلة الخصر ، متزنة الخطو » !

وإذا اتفق الأبوان والأبناء تم الزواج على ما يشتهون ،
وإذا اختلفوا كانت الغلبة لأكثرهم حيلة .

ولم يتبق من وثائق الصور الفرعونية المبكرة ما يصور
محافل الزواج وماداتها ، ولكن ألححت إليها بضع قصائد
واساطير وعفود قليلة تبدأ ببداية القرن الخامس عشر ق م .
فروت قصيدة غزلية أن الأم كانت تخطب لولدها أحياناً ،
وروت أسطورة أن والد العروس كان يجهزها بما يتناسب مع
ثرائه ، وأن العروس كانت تنلقى هدايا ذويها ومعارفها ، وتزف
إلى دار عريسها حين المساء .

ومنت عقود الزواج على أن ولي أمر العروس ظل ينوب
عنها في كتابة العقد حتى القرن السابع ق م أو قبله بقليل ، ثم
أباح المجتمع للعروس وللثيب الخاصة ، أن تحضر كتابة العقد بنفسها .
وكان عقد القران يشهده الشهود من القرية أو الحى وتسجل
أسماءهم به . وورد من شهود عقد متواضع في مدينة طيبة ،
رئيس إسطلب وعتب وكاهن .

ويقسم الزوج خلال العقد على تعهداته بأسماء أربابه واسم
فرعونه ، وينص كتابة على قيمة الصداق من أوزان الفضة ومكايل
الغلال ، فضلاً على مؤجل معين يدفعه إذا نشب بينه وبين زوجته
ما يدعو إلى الانفصال . وفي عقد متأخر من هذه العقود تعهد

زوج أن يقدم لزوجته نصيباً من الخنطة كل صباح ، ومقداراً من الزيت كل شهر ، وراتباً لنفقاتها الفردية كل شهر أيضاً ، وراتباً مفروضاً لتكاليف زيتها كل عام ، كما تعهد أن يدفع لها تعويضاً إذا سرّحها وتزوج سواها . وتضمن العقد نفسه عبارة مقصودة ، أكد الزوج بها لزوجته أنه يعلم تمام العلم أن نفقات زينة العام تخالف راتبها الشهري المعلوم ولم يكن تأكيده بدعة ، وإنما كان مما يقضى به العرف عامة ، لا سيما أن شغف المصريات القادرات بملايسهن وحليهن وصنوف العطور والدهون والزهور والمرايا والمكاحل والمرابح فضلاً على الشعور المستعارة للخروج والمحافل ، كان شغفاً فريداً تشهد به صورهن الباقية والنماذج الكثيرة التي وجدت من أدوات زيتتهن في مخلفات المقابر .

ودلت بعض عقود الزواج على أن ولى أمر الزوجة كان يوصى لها أحياناً ببعض أملاكه حين زواجها ، وأن فوارق الطبقات لم يكن لها أثر كبير في التفرقة بين مستوى العريس ومستوى العروس ، وإنما قد تزوج الفتاة بأحد أتباع ولى أمرها إذا راقه وراقها ، أو يتزوج الفتى ابنة خادمة أسرته إذا راقه وراقها . غير أن هذا الترخص لم يكن متاحاً دائماً ، لا سيما في بيوت الفراعنة التي استنتت تزويج بعض أمرائها باخواتهم ، عن رغبة منها في أن



وعاء طيب صغير تحمله صبية حلوة تثني في دلال برىء وحيوية ناطقة
تستبقى الدم الفرعوني خالصاً بغير شبهة ، وأن توثق الأواصر
بين أبناء الملكات الضرائر ، وتقلل من منازعاتهم على وراثة
العرش . ولكن ينبغي أن تضيف من وجه آخر أن الأمراء
والأميرات البعيدين عن صلب الفرعون الحاكم لم يتقيدوا بهذه
السنة ، كما أن بعض الفراعنة استطاعوا أن يتحللوا منها ، ولم
يابوا أن يصهروا إلى العائلات الكبيرة من رعاياهم بيناتهم

وبأنفسهم أيضاً ، فقد تزوجت ابنة الفرعون شبسكاف آخر
الفراعنة الرجال في الأسرة الرابعة ، بفتى شريف رباه أبوها في
قصره ، ولما مات شبسكاف بغير وريث ذكر ، خلفته أخته
وتزوجت أحد كبار دولتها بعد أن عز عليها أن تتكفل بمهام
الحكم وحدها . وتزوجت إحدى أميرات الأسرة الخامسة قزما
ربا وأنجبت منه بنين وبنات . وتزوج الفرعون پي الأول
أختين على التتابع لأحد كبار موظفيه ، بعد أن تبين روح الغدر
من زوجته الأولى . وتزوج الفرعون أمنحوتب الثالث بفتاة من
أواسط الناس تدعى « نى » استطاعت أن تأسر له بدلاهما
وذلكاها وشخصيتها الطاغية .

واختلف حق الزوجة في تصريح أمر نفسها وأمر أملاكها
والوصاية على أبنائها القصر بعد وفاة زوجها من عصر إلى عصر .
فدلت وثائق بعض العصور على حريتها المطلقة في التصرف في
أملاكها في حياة زوجها ، والتصرف في إرثها من تركته بعد وفاته ،
وأشارت إلى حقها في الولاية على أبنائها القصر ، ما لم يكن لها ابن
كبير يرعاها ويرعاهم ويكون له عليهم نفس ولاية أبيه وسلطاته .
بينما نمت وثائق أخرى عن حق الزوج في تعيين مرب يعهد إليه
بأولاده إذا أحس بقرب أجله ، أو تعيين وصى على تركته ينقل

إليه سلطته وواجباته ويخضع له أبناؤه الصغار بعد وفاته .

* * *

لم تبق أقاصيص مصرية أو أساطير تصور طباع الحموات ، ولكن تخلفت قرائن تاريخية متقطعة شهدت بتساح الأزواج أكثر مما شهدت بتساح الحموات . فقد تعتمد بعض الأزواج الطيبين أن يصوروا حمواتهم في مقابرهم إرضاء لزوجاتهم . وتقبل الفرعون تحوتمس الثانى زوج حاتشبسوت أن تتلقب حماته بلقب « أم الملك » أى أمه ، على الرغم من أنها كانت ضرة لأمه . ولما وافاه الموت خلفه على العرش ولده تحوتمس الثالث ، وكان ابن ضرة لحاتشبسوت ، فلم تشأ أن ترد تساح أييه بالحسنى ، وراوغته واستغلت صغر سنه فزوجته ابنتها وفرضت نفسها وصية عليه وشريكة له فى عرش أييه تسع سنين ، ثم أقصته عن الحكم ثلاثة عشر عاماً وانفردت بالعرش دونه . ولما انقضى أجلها وآل السلطان إلى غريمها ، بعد أن شب عن طوقه وكثر أنصاره ، لم يذكر حماته فى حولياته بسوء ، واستمر يخص ابنتها بمركز الصدارة فى قصره ، ولكنه جازاها عن عتوها بصورة أخرى ، فأوحى إلى أتباعه أن يطمسوا أسماءها وصورها ويمحوها من كل آثارها المصورة والمكتوبة ، وأن يهشموا تماثيلها أينما

وجدوها ، عساء ينساها وينسى الناس ذكرها .
وأحاطت بالفرعون أخناتون صاحب دعوة التوحيد ،
امراتان : أمه تي ، وزوجته نفرتيتي . وكانت تي ذات بأس
وثقوذ ، وكانت تتردد على قصره من حين إلى آخر ، فيكرم
مشاها ويؤدب لها المحافل ويجمع بينها وبين زوجها نفرتيتي .
ورأت تي أن دعوة التوحيد التي تزعمها ولدها جرت عليه
خصومات عنيفة وألبت عليه كبار كهنة مدينة طيبة ، فبدأت
تدعوه إلى أن يهادنهم ويتخلى عن بعض المثالية في دعوته ،
لولا أن نفرتيتي لم تكن دون حماها تي بأساً وسيطرة ،
نخاصمتها في ولدها ، واستمرت تحرضه على التشيع لدعوته ،
قتشتت نفسه وتشتت جهده بين طاعة أمه ، والإخلاص لدعوته ،
وإرضاء زوجته .



المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها الآن :

- ١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ — الاشتراكية والشيوعية ... للأستاذ علي أدهم
- ٣ — الطاهر يبرس في القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد يونس
- ٤ — قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم
- ٥ — طب وسحر للدكتور بول غليونجي
- ٦ — فجر القصة للأستاذ يحيى حقي
- ٧ — الشرق الفنان للدكتور زكي نجيب محمود
- ٨ — رمضان للأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٩ — اعلام الصحابة للأستاذ محمد خالد
- ١٠ — الشرق والإسلام للأستاذ عبد الرحمن صدقي
- ١١ — المريخ { للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى

- ١٢ — فن الشعر للدكتور محمد مندور
- ١٣ — الاقتصاد السياسى للأستاذ حمد محمد عبد الخالق
- ١٤ — الصحافة المصرية للدكتور عبد اللطيف حمزه
- ١٥ — التخطيط القومى للدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن
- ١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية للدكتور ثروت عكاشه
- ١٧ — اشتراكية بلدنا للأستاذ عبد المنعم الصاوى
- ١٨ — طريق الغد للأستاذ حسن عباس زكى
- ١٩ — التشريع الإسلامى
واثره فى الفقه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى
- ٢٠ — العبقرية فى الفن للدكتور مصطفى يوسف
- ٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
- ٢٢ — قصة الذرة للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
- ٢٣ — صلاح الدين الأيوبي
من شعراء عصره وكتابه للدكتور احمد احمد بدوى
- ٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
- ٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى
- ٢٧ — القومية العربية للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
- ٢٨ — القانون والحياة للدكتور عبد الفتاح عبد الباقي

- ٢٩- قضية كينيا للدكتور عبد العزيز كامل
- ٣٠- الثورة العرابية » أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣١- فنون التصوير المعاصرة للأستاذ محمد صدقي الجباخنجي
- ٣٢- الرسول في بيته للأستاذ عبد الوهاب حموده
- ٣٣- أعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمد خالد
- ٣٤- الفنون الشعبية للأستاذ رشدي صالح
- ٣٥- إختاتون للدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٣٦- الذرة في خدمة الزراعة » محمود يوسف الشواربي
- ٣٧- الفضاء الكوني للدكتور محمد جمال الدين الفندي
- ٣٨- طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكرى محمد عباد
- ٣٩- قضية الجلاء عن مصر للدكتور عبد العزيز رفاعى
- ٤٠- الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
- ٤١- العدالة الإجتماعية للأستاذ المستشار عبد الرحمن نصير
- ٤٢- السينما والمجتمع للأستاذ محمد حلمى سليمان
- ٤٣- العرب والحضارة الأوروية للأستاذ محمد مريد الشوباشى
- ٤٤- الأسيرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح

الثن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها ...

واطلب من :

- ١ — دار القلم ١٨ شارع سوق التوفيقية بالفاخرة
- ٢ — مكاتب شركة توزيع الأخبار في الإقليم المصرى
- ٣ — وكلاء الشركة القومية في جميع البلاد العربية
- ٤ — مكتبة المتى بـعـداد — العراق
- ٥ — الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس
- ٦ — مكتبة الندوة — السودان

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساندة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

صِرَاع
على أرض الميعاد
ممر عطا

١٥ سبتمبر ١٩٦١